المكتبة الثقافية

زواج العلم والأدب

د. نبيل راغب

المكتبة الثقافية

٤٨٣

زواج العلم والأدب

د. نبيــل راغب

● لاخراج الفنى : سهير معطى

١

وحدة المعرفة الانسانية

أصيب الأدب العربى بآفة قاتلة قبل أن نجد لها نظيرا فى آداب عالمنا المعاصر • هذه الآفة تقول ان الفرق بين الأدب والعلم مثل الفرق بين الأضداد التى لايمكن أن تتلاقى ، مما نتج عنه انفصال كامل بين أهم فرعين من فروع المعرفة الانسانية ، وأتاح الفرصة لكل من هب ودب لكى يدلى بدلوه فى نهر الأدب الذى لم يعد يعرف له منبعا أو مصبا أو حدودا •

وطالما أن الأدب فقد صلته العضوية بالعلم ،

فمن السهل على أى مدع أن يكتب ما يسميه بالقصة القصيرة أو الرواية أو المسرحية أو القصيدة ، ناسيا بذلك أن المعرفة الانسانية لا تتجزأ وأن الأديب الذى لا يمتلك منهجا علميا فى كتاباته ، لا يمكن التفريق بينه وبين كاتب العرائض الذى يقبع على باب المحكمة أو دار البريد .

وأذكر عندما كنا طلبة بالمدارس الثانوية فى منتصف الخمسينيات ، أن قرر علينا كتاب فى اللغة العربية بعنوان « النقد والبلاغة » ، وكانت الفكرة الأساسية التى ينهض عليها الكتاب هى التفريق الحاد بين ما أسماه المؤلفون بالأسلوب العلمى والأسلوب الأدبى . ففى نظرهم يتميز الأسلوب العلمى بالاقتصاد فى التعبير والتحديد فى المعنى ، أما الأسلوب الأدبى فيعرف بالاطناب والخيال والمحسنات اللغوية والبديعية . ونسى مؤلفو الكتاب أن الأسلوب هو علم أولا وأخيرا ، فاذا كان الكاتب العلمى فى حاجة الى الاقتصاد فى التعبير ، فالكاتب الأدبى فى حاجة أشد منه الى ذلك ، أما الأديب الذى يعتبر الأدب مجرد تعبير عن وجهة نظره الذاتية

وأحاسيسه الشخصية ، فلن يخرج عن نطاق موضوعات الانشاء التى يطلب من طلبة المدارس كتابتها .

وهذا الانفصال بين العلم والأدب يدعى أن الأديب رجل لا يفقه شيئا فى العلم ، والعالم رجل لا يحب أن يضيع وقته الثمين فى هواجس الأدب وشطحاته . واذا كان العلم بطبيعته لا يسمح لأى شخص بأن يدلى بآرائه الشخصية فى نظرياته المتعددة لأنها تتعامل مع الحقائق ، وأن هذه الآراء الشخصية مقبولة فقط فى حالة قيامها على أساس علمى : نظرى أو تطبيقى . فالأدب لا يكتسب مثل هذه المناعة ضد المدعين لأنه يتعامل مع النفس البشرية بكل متناقضاتها وصراعاتها المحيرة التى يستحيل وضع حدود فاصلة لتمييزها بشكل نهائى .

وكان هذا بمثابة باب مفتوح على مصراعيه لكى يدلف منه المدعون مرتدين أردية الأدباء والمفكرين العظام . أما القارىء العادى فليس لديه الوقت أو الصبر لكى يميز بين الأصيل والمدعى ، ومن هنا كان اختلاط

الحابل بالنابل فى ميـدان الأدب فى العـالم العربى بصفة عامة ٠

وقد استغل مدعو الأدب فى العالم العربى الدعوة الى انفصـال العلم عن الأدب لكى يخفوا بها جهلهم بقوانين الكون والأحياء والنفس البشرية ، وهى القوانين التى شكلت المضمون الرئيسى للأدب على مر العصور ٠ ساعدهم فى ذلك القرون الأربعة المظلمـة التى مر بها العالم العربى تحت نير الامبراطورية العثمانية ، والتى أحالت الأدب الى مجرد زخارف لفظية جوفاء لا تحمل من المعانى الانسانية بقدر ما تنوء بحمل القوالب اللغوية الصماء ٠ لكن بسقوط الامبراطورية العثمانيـة دخل العـالم كله فى مرحلة الحرب العالميـة الأولى ، وهى المرحلة التى أصبح فيها الانفصـال بين العلم والأدب شبه ظاهرة عالمية ٠ فعندما انتصرت الدول المتقدمـة علميا وتكنولوجيا واستطاعت وضـع نهاية للحرب حين تمكنت من السيطرة على دفة الأمور فى العـالم ، سادت الأذهان ـ منذ ذلك الوقت ـ الفكرة الخاطئـة التى تنادى بأن النصر والغلبـة للعـلم والتكنولوجيـا

أما الأدب والفن فمجرد زخاف خارجية لحيــاة البشر يمكن الاستغناء عنها عندما تحين ساعة الجد والحسم .

واذا كان هــذا الاعتقاد قد حاول الانتشــار فى الدوائر الفكرية والثقافيــة فى العالم فى حين حــاول المفكرون والمثقفون الأصلاء التصدى له بأسلحة العلم والفن ، فان هــذا الاعتقاد القاصر قد تمكن من حياة الانســان العربى بحيث أصيب بانفصــام بين عقــله ووجدانه ، وخاصــة أن المناخ الفكرى والنفسى كان ممهدا من قبل لهذا الانفصــال بين العلم والأدب فى العالم العربى نتيجــة لقرون الاستعمار التركى التى عاش فى ظلامها . وكانت النتيجة أن الانســان العربى أصبح يفــكر بأســلوب ويحس بأســلوب آخر قد يتناقض تماما مع أسلوب تفكيره . لذلك نراه يؤمن فى أعماق نفسه بأشياء راسخة لكن سلوكه الظاهرى يؤكد عكس هــذه الأشياء تماما . أى أن الانفصــال بين المظهر والجوهر ، أو بين الأقوال والأعمال كان تجسيدا حيا للانفصال بين العلم والأدب ، ذلك أن الانســان الذى تتجزأ معرفته وفكره وثقافته ونظرته الى الوجود ،

لابد أن تتجزأ مقومات شخصيته بالتالى ، وتفتقر حياته الى الاتساق والتناغم والنظرة الانسانية الموضوعيــة الشاملة •

وهذه الدراسة محاولة علمية أدبية للوصـــول الى نظرية عربية تؤكد بالدليل العلمى والبرهان الأدبى أن العلاقة بين العلم والأدب ليست مجرد زمالة أو معاصرة، لكنها علاقة زواج بمعنى الكلمة ، زواج ينتج عنه أفكار ونظريات وأشكال ومضـــامين جديدة تتطور بالفــكر الانســـانى الى مراتب أعلى • والدليل على اتســـاق جزئيات هذه النظرية وتناغم عناصرها أنها تنطبق على النظريات والقوانين الموجـــودة فى العـــلوم الطبيعيـــة والتجريبية والانسانية على حد سواء كما تنطبق تماماً على الأشكال والمضامين الأدبية من شعر ومسرح ورواية أو غير ذلك من الأشكال الأدبيـــة التى قد تستجد فى المستقبل • فالعقل الانســـانى ابتكر العلم كما ابتكر الأدب ، وهو عقل واحد فى جوهره ، ولو أصيب بأى انفصال فقل على العالم السلام •

ان وحدة هذه النظرية واتساقها ينبعان من وحدة العقل الانسـانى والدليل العملى على هـذا أننا اذا حاولنا تحليل الأعمال الأدبيـة تحليلا منهجيـا علميا موضوعيا لوجدنا أن كل الأعمال الجيدة الناضجة منها تقوم على أسـاس من قوانين علمية تتحكم فى حركتها ونموها وتطورها الطبيعى دون تدخل مفتعل من المؤلف لتسيير دفة العمل الأدبى كما يهوى • وبرغم انعزالية الكثير من العلماء عن ميدان الأدب ، فاننا نجد معظم الأدباء المجيدين يستخدم القوانين العلميـة فى خلقـه لأعماله الفنية سـواء بوعى أو بلا وعى ، ذلك لأنها تفيده فى تنظيم فكره وتشكيل فنه ومن السـهل أن تتبعها فى الأعمال الأدبية الجيدة ، والقوانين العلميـة من أمثال قوانين الجاذبية عند نيوتن ، والقوة والمقاومة، ونظرية النسبية عند آينشتاين ، والتفاعل الكيميائى • والتطور البيولوجى وغير ذلك من انجـازات الفيزياء والرياضـيات والكيميـاء والبيولوجيـا • حتى علوم الاقتصـاد والجغرافيـا والتاريخ استقى منهـا الأدب مضامينه •

. . وإذا كان الأدب قد استفاد من توظيف قوانين العلوم الطبيعيـة والتجريبيـة ، فانه من باب أولى أن يتوغل فى مجالات العلوم الانسانية كعلم النفس ، وعلم الاجتمـاع ، وعلم المنطق ، وعلم الأخـلاق ، وعـلم الجمال . وهذا ما حدث بالفعل لدرجة أن الحدود كانت تضيع أحيانا ـ فى نظر بعض النقاد ـ بين ما ينتمى الى مجـال الخلق الفنى والأدبى وبين ما يتصل بمفاهيم علوم النفس والاجتماع والمنطق والأخلاق . لكن هذه الدراسة توضح أن وجود القاعدة المشتركة التى يقف عليها الأدب مع هـذه العلوم لا يعنى ضياع الحدود والوظائف والأهداف المميزة .

وإذا كانت هذه الدراسة قد برهنت على ضرورة المنهج العقـلانى بالنسـبة لعمليـة الخلق الفنى عند الأديب ـ وخاصة فيما يتصل بعنصر الصنعة ـ فان من الضرورى بصفـة أكثر الحاحا أن يصبح النقد الأدبى علما قائما بذاته بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى . ذلك أن النقد الانطباعى قد ولى زمانه ، ولم يعد الناقد حرا فى التعبير عن احساساته الشخصية تجـاه العمل

الأدبى ، بل أصبح من غير المسموح له ألا يقول شيئا الا اذا كان مبررا ومؤيدا بالبراهين الملموسة والأدلة المادية والشواهد النابعة من داخل العمل نفسه بدون أى فرض للتفسيرات الخارجة عنه ، والتى قد يتبرع بها الناقد من عندياته . لذلك أصبح النقد الأدبى تحليلا للعمل حتى يصل المتذوق الى عوامله الأولى المشكلة له ، ومن ثم يشارك الأديب فى عملية الاستمتاع بمراحل التشكيل الفنى ، وبهذا تنتقل اليه عدوى الفن الجميل لكى تعيد تشكيل وجدانه ونظرته الى الحياة .

واذا كان الوجدان الانسانى هو المنجم الذى يستخرج منه الأديب مواده الخام التى يشكلها فى أعماله الأدبية ، فان هذا الوجدان ليس شيئا دخيلا على مجال العلوم لدرجة أن هناك ما يمكن تسميته بالوجدان العلمى . صحيح أن اصطلاح « الوجدان العلمى » قد يبدو غريبا لأول وهلة لكنه فى الحقيقة أمر واقع فعلا ، وذلك بالرغم من أن العلماء كثيرا ما يفخرون

بأنهم يتسلحون بالموضوعية الأكاديمية والحيادية الباردة البعيدة عن كل عاطفة . لكن الفيلسوف الانجليزى المعاصر روبين كولنجوود يؤكد أن صيحة أرشميدس « وجدتها » كانت العاطفة فى قمتها وقد تجسدت فى الانتصار العلمى الذى اكتشفه .

لذلك فانه آن الأوان لكى يتخلص الأدب العربى من الآفة التى أصابت بعض الأعمال المعاصرة ــ بصفة خاصة ــ والتى أنتجها أدباء عرب لم يهتموا كثيرا بالعلاقة العضوية والخفية بين العلم والأدب . فنحن لا نعيش فى عصر العلم فحسب ، بل نعيش فى عصر المعرفة الانسانية الشاملة . انه عصر يؤمن بأن المعرفة كل لا يتجزأ . لا فرق فى هذا بين أديب وعالم لأن الاثنين يهدفان الى شىء واحد : فهم أفضل واستيعاب أشمل لموقف الانسان من حياته ومجتمعه والكون الكبير الذى يحتويه . فاذا كان العلم يجسد منجزات العصر المادية ، فان الأدب يبلور ملامح العصر الروحية . ونحن لا نستطيع فصل الجسد عن الروح ، والا سقط الجسد جثة هامدة لا حراك فيها .

لقد أصبح من الضرورى لكل أدباء العربيـــة أن يتسلحوا بكل امكانات المنهج العلمى ، وأن يستوعبوا كل أبعاد العلاقة العضوية بين الأدب والعلم كمحــاولة للتخلص من المدعين الذين أقحموا أنفسهم على الميدان الأدبى ، وأدلوا بدلوهم الزاخر بالادعــاء والسفسطة والبلاغة الانشائية التى عفا عليها الزمن • ومن هنا كان اهتمام هذه الدراسة بدور المفكرين والأدباء المعاصرين فى العــالم العربى الذين كانوا سباقين الى مواكبــة المحاولات العالميــة لرأب الصــدع أو ســد الفجوة المصطنعة بين العلم والأدب • لكن هــذه المواكبة لم تكن ذات آثــار حاســمة وفعــالة لأنها ــ فى معظم الأحيان ــ لم تخرج عن نطــاق المحــاولات الفردية أو الجهود المتناثرة المبعثرة التى لم تتخذ بعد شـــكل الحركة الفكرية أو الثقافية أو الحضارية التى يمكن أن تخرج الى حيز التنفيــذ فى مجــالات التعليم العــام أو التثقيف الذاتى فى العالم العربى بصفة عامة • لذلك مازالت حياتنا الثقافية تنقسم الى قبيلتين ــ وان لم تكونا متعاديتين فهما على الأقل منفصلتان ــ هما قبيلة

العلماء وقبيلة الأدباء • وقد حاولت هذه الدراسة بلورة محاولات المفكرين العرب المعاصرين فى ايجاد قاعدة مشتركة ينطلق منها كل من العلم والأدب الى آفاق العصر الذى نعيشه •

ولعل هذه الدراسة تكون بمثابة دعوة لأدباء العالم العربى وعلمائه وفنانيه ومفكريه لكى يطرحوا على بساط البحث هذه النظرية التى تلقى الأضواء الموضوعية على العلاقة العضوية بين الأدب والعلم بحيث نعالج الانفصال الذى طرأ بينهما نتيجة للظروف والضغوط والمعوقات الحضارية والتاريخية التى أجبرتنا على عدم اللحاق بركب الحضارة الانسانية المعاصرة التى تؤمن بأن العلم والأدب وجهان لعملة واحدة هى المعرفة الانسانية التى لا تتجزأ بطبيعتها • ليس هذا فحسب بل يتحتم علينا أن نضيف الى حضارة العصر كل الثمار اليانعة فى حضارتنا وتراثنا ، وكل ما يؤكد للشعوب الأخرى أن لنا شخصيتنا المتميزة ومنهجنا

الابداعى وثقافتنا القائمة على الأخذ والعطاء . وخاصة أن الحضـــارة العربيـــة فى أوج ازدهارها لم تفرق بين فروع المعرفة الانسانية ، بل كانت تكن أسمى آيات التقدير والاعجاب للحضارة الاغريقية التى أكدت على أوسع نطـاق عملى ونظرى عدم ايمانها بمثل هـــذه التفرقـــة المصطنعة ، ذلك أن كل روافـــد الحضـــارة الانسانية تنبع من نفس المنبع وتصب فى نفس المصب .

الجيزة - يناير ١٩٨٩ **د. نبيل راغب**

٢

الفكر العربى بين العلم والأدب

هناك حقيقة جديرة بالتسجيل بالنسبة لموقف الفكر العربى من قضية العلاقة العضوية بين العلم والأدب ، وهى أن هذا الفكر كان سباقا الى مواكبة كل المحاولات العالميـة المعـاصرة لرأب الصـدع أو سـد الفجوة المصطنعة بين العلم والأدب . لكن هذه المواكبة لم تكن ذات آثار حاسمة وفعالة لأنها ــ فى معظم الأحيان ــ لم تخرج عن نطاق المحاولات الفردية أو الجهود المتناثرة المبعثرة التى لم تتخذ بعد شـكل الحركة الفـكرية

أو الثقافية أو الحضارية التى يمكن أن تخرج الى حيز التنفيذ فى مجالات التعليم العام أو التثقيف الذاتى فى العالم العربى بصفة عامة • لذلك مازالت حياتنا الثقافية تنقسم الى قبيلتين ـ وان لم تكونا متعاديتين فهما على الأقل منفصلتان ـ هما قبيلة العلماء وقبيلة الأدباء •

لكن هذا الانفصال لا يدعو الى التشاؤم أو اليأس ، لأن الحضارة العربية فى أوج ازدهارها لم تفرق بين فروع المعرفة الانسانية • ذلك لأنها كانت تكن أسمى آيات التقدير والاعجاب للحضارة الاغريقية التى عرفت على يدى أرسطو أن المعرفة الانسانية وحدة لا تتجزأ ، وأن كل روافدها تنبع من نفس المنبع وتصب فى نفس المصب • يقول الدكتور أحمد محمد الحوفى فى كتابه « الأدب العربى وتاريخه » :

« ازدادت دلالة كلمة « أدب » اتساعا فى بعض فترات من العصر العباسى ، اذ دلت على الاستنارة والمهارة النظرية والعلمية ، فالفلسفة أدب ، والصيد

والشطرنج أدب ، والسياسة وخدمة الملوك أدب ، والأديب هو المثقف المستنير اللبق ، قال الوزير الحسن بن سهل المتوفى سنة ٢٣٦ هـ : الآداب عشرة : ثلاثة شهرجانية ، وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن : فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج ، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية ، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحدة التى أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم فى المجالس » .

وجاء فى احدى رسائل الجاحظ قوله : « وجدنا الفلاسفة المتقدمين فى الحكمة ذكروا أن أصول الآداب التى يتفرع منها العلم لذوى الألباب أربعة : فمنها النجوم وأبراجها وحسابها ، ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير ، ومنها الكيمياء والطب وما يتشعب من ذلك ، ومنها اللحون ومعرفة أجزائها ومخارجها وأوزانها » .

هنا يتضح أثر أرسطو على الفكر العربى فى أوج

ازدهاره ، فقد أدخل الجاحظ العلوم الرياضية وبعض العلوم الطبيعية فى مجـال الأدب • ولاشك أن هـذا التأثير امتد بعد ذلك فى الحضارة العربية بحيث أدخل اخوان الصفا ـ على سبيل المثال ـ السحر والكهانة والكيمياء فى معانى الأدب وصوره الفنية ، وذلك بالطبع الى جانب اللغة والشعر والرياضة •

نجد نفس الاتجـاه فى كتاب « الآداب الرفيعة » الذى ألفه عبيد الله بن طاهر المتوفى سـنة ٢٨٩ هـ ، والذى كان من صفوة المفكرين والمثقفين الذين عاشوا فى بلاط الخليفة المعتضد بالله • فقد وضـع كل فروع المعرفة الانسانية تحت باب الآداب الرفيعة ، ولم يكن الأدب عنده مجرد لغة الشـعر والبلاغـة والانشـاء والخطابة ، بل كان الطريق المؤدى الى العلوم الطبيعية والرياضية •

أما فى القرن الرابع الهجرى فقد جمع القاسـم اسماعيل بن أحمد الشنجرى فروع الأدب فى قوله :

ان شئت تعلم فى الآداب منزلتى
وانني قـد عـدانى العز والنعم

فالطرف والسيف والأوهاق تشهد لى
والعود والنرد والشطرنج والقلم

ولهذا نجد بعض مؤلفى العربيـة يدرجون تحت كلمة « أدب » كل المعارف ، ففى كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى أن علم العربية المسمى بعلم الأدب علم يحترز به عن الخلل فى كـلام العرب لفظـا أو كتابة وينقسم على ما صرحوا به الى اثنى عشر قسما ، وهى العلوم التى عرفت بالعلوم العربية . أما ابن خلدون فلم يكن من الغريب بالنسبة له أن يعرف الأدب فى المقدمة بقوله تحت عنوان « علم الأدب » :

« هـذا العلم لا موضـوع له ينظر فى اثبـات عوارضه أو نفيها ، وانما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته ، وهى الاجادة فى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ، فيجمعون لذلك من كـلام العرب

ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالى الطبقة ، وسجع متساو فى الاجادة ، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة فى أثناء ذلك متفرقة ، يستقرىء منها الناظر فى الغالب معظم قوانين العربية ، مع ذكر بعض أيام العرب ، يفهم به ما يقع فى أشعارهم منها ، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة .

والمقصود بذلك كله ألا يخفى على الناظر فيه شىء من كلام العرب وأساليبهم ومناحى بلاغتهم اذا تصفحه ، لأنه لا تحصل الملكة من حفظه الا بعد فهمه ، فيحتاج الى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه .

ثم انهم اذا أرادوا حد هذا الفن قالوا : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم ، والأخذ من كل علم بطرف ، يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهى القرآن والحديث ، اذ لا مدخل بغير ذلك من العلوم فى كلام العرب ، الا ما ذهب اليه

المتأخرون عند كلفهم بصـــناعة البديع من التورية فى أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلميـــة ، فاحتـــاج صاحب هذا الفن حينئذ الى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها » .

واذا كان مفهوم ابن خلدون للعنصر العلمى فى الأدب مشوشا بعض الشيء الا أنه يكفى هـــذا الرائد العظيم ادراكه فى هـــذا الزمن المبكر للروح العلميـــة فى الابداع الأدبى لدرجة أنه أسماه « علم الأدب » .

٣

العقاد وطه حسين

وفى العصر الحديث ظهرت بوادر التفكير العلمى فى كتابات أدبائنا المصريين حينما راحوا يدعون الى التزام المنهج العقلى الصرف كما فعل كل من عباس محمود العقاد وطه حسين على سبيل المثال لا الحصر • وقد ارتفعت صيحات كثيرة فى عهد العقاد ـ ولازالت تتردد أحيانا فى أيامنا هذه ـ معلنة أننا فى عصر العلم فلا حاجة بنا إلى الأدب • وكان رد العقاد اتهامه أصحاب

هذه الدعوة بالعداء المستتر للعلم نفســه ، ذلك أن العصر الذى يحصر الحياة فى نطاق واحد هو أخبث العصور وأسخفها ، لأنه عصر ضيق الأفق الذى يحصر الحياة والفكر فى نطاق محدود ، لذلك يقول العقــاد فى مقال له بعنوان « الشعر والدبابات » عام ١٩٤٤ :

« وسعوا أفق الحيــاة ولا تضيقوه ، وأنتم على ثقة من صــواب ما تعملون وجــدوى ما تعملون . أما « خــذوا هــذا ودعوا ذلك » فهو كلام كســالى مهزولين لا يصلحون للعلم ولا للأدب » .

ويؤكد العقاد أن الغرب لم يغلبنا لأنه قال بالعلم دون الأدب ، أو بالمخترعات دون الأخيــلة والخواطر النفسية ، ولكنه غلبنا لأنه وسع نطاق الحياة . وهكذا كان دفاع العقاد عن الفن والأدب ، منذ البداية ، دفاعا عن جــوهر العــلم الحقيقى الذى يؤمن بالانطــلاق والتجديد وبلوغ آفاق العصر التى لا تفرق بين العلم والأدب .

أما طه حســين فكانت صلته بلطفى السيد هى

بداية تفتحه على الفكر العقلانى المؤمن بقدرة الانسان العقلية سـواء فى ميادين الأدب أو العـلم • وعندما ذهب طه حسين الى فرنسا فى بعثته بين سنتى ١٩١٥ و ١٩١٩ للحصول على درجة الدكتوراه من السوربون فى « الفلسفـة الاجتماعيـة عند ابن خلدون » تحت اشراف عـالم الاجتمـاع والفيلسوف الشـهير اميل دوركايم ، تفتح ذهنه على كل خصائص المنهج العقلانى وازداد تعلقه به الى الدرجة التى اتخذ منها منهجـا فـكريا فى الأدب والنقد والبحث العـلمى والتاريخ والاجتماع والتربيـة والتعليم • يقول فى كتابه « فى الأدب الجاهلى » عام ١٩٢٧ :

« أريد أن أريح الناس من هذا اللون من التعب ، وأن أريح نفسى من الرد والدفع والمناقشة فيما لايحتاج الى مناقشة • أريد أن أقول انى سأسلك فى هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العـلم والفلسفة • أريد أن اصطنع هـذا المنهج الفلسفى الذى استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء فى أول هذا العصر الحديث ، والناس

جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هى أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلوا تاما .

والناس جميعا يعلمون أن هذا المنهج الذى سخط عليه أنصار القديم فى الدين والفلسفة يوم ظهر ، فقد كان من أخصب المناهج وأقواها وأحسن أثرا ، وأنه قد جود العلم والفلسفة تجويدا ، وأنه قد غير مذاهب الأدباء فى أدبهم والفنانين فى فنونهم ، وأنه هو الطابع الذى يتميز به هذا العصر الحديث » .

بهذا المنهج يحاول طه حسين الوصول الى الموضوعية العلمية بقدر الامكان بصرف النظر عن كل الاعتبارات الذاتية والعلاقات الاجتماعية ، فيؤكد فى رسالته عن ابن خلدون أنه من الضعف الأكاديمى « أن يندفع مؤلف الى أن يخلق الأقوياء ، وكذلك أن يبالغ من يروى تاريخ ملك ما فى أهمية كل ما يرد مؤيدا لسيده ، ويلزم الصمت عمدا ازاء كل ما يشين

مجده ، وأول شرط يجب على المؤرخ مراعاته هو عدم التشيع » .

وعدم التشيع عند طه حسين ضرورة تحتمها الموضوعية الأكاديمية ، لأن التشيع معناه تشتيت الانتباه ، طمس الحقيقة ، وضياع المجهود الذهنى فيما لا طائل من ورائه ، فهناك قانون السبب والنتيجة الذى لا يقيم اعتبارا للأهواء الذاتية التى لا تقدم ولا تؤخر ، وان كانت تؤخر فى كثير من الأحيان . وهذا القانون لا ينطبق فقط على مفهوم التاريخ عند طه حسين لكنه يمتد ليشمل كل فروع المعرفة الانسانية. وهو اتجاه يتضح تماما فى رسالة الدكتوراه الأولى التى حصل بها طه حسين على أول دكتوراه فى الجامعة المصرية عام ١٩١٤ — قبل سفره الى باريس للحصول على رسالة الدكتوراه الثانية — وفيها يقول :

« ان الحياة الاجتماعية انما تأخذ أشكالها المختلفة ، وتنزل منازلها المتباينة بتأثير العلل والأسباب التى لا يملكها الانسان ، ولا يستطيع لها دفعا لا اكتسابا » .

وكانت الرســالة عن أبى العــلاء المعرى ، وهى توضح لنا أن المنهج العلمى قد بدأ مع طه حسين منذ بدأ يشق طريقه كمفــكر وكأديب ، لذلك فهو يرفض أى شىء لا يخضع للاستنتاج والاستقراء ، فلا يوجد شىء فى هذا الوجود الا وله سبب أدى الى وجوده ، أو كما يقول طه حسين :

« لم يكن بين أحكام العقل أصدق من القضية القائلة بأن المصادفة محال ، وأن ليس فى هذا العالم شىء الا وهو نتيجة لعلة سبقته ، ومقدمة لأثر يتلوه ولولا ذلك لمــا اتصلت أجزاء العالم ولمــا كان بين قديمها وحديثها سبب ، ولمــا شملتها أحكام عامة » .

وهذا المنهج ــ عند طه حسين ــ ينطبق على كل مناحى الحيــاة ، فهو يرى أن « الحادثة التاريخيــة ، والقضية الشعرية والخطبة ، كل أولئك نسيج من العلل الاجتماعية والكونية يخضــع للبحث والتحليل خضوع المــادة لعمل الكيمياء » .

ذلك أن التحليل الكيميائى بطبيعته موضوعى ،

فالمادة موجودة بكل خصائصها بصرف النظر عن رأى الباحث الشخصى فيها ، لأن هذا الرأى لن يغير منها على الاطلاق . وعلى ذلك فان أول شرط للمنهج العلمى الجاد هو تنحية الفكر الذاتى الضيق جانبا ، وخاصة أن التقدم العلمى والفنى الذى تحققه أية أمة يعود الى المحصلة العقلية التى توضح طريق التقدم . أما الاستسلام للتعصب والانحياز فمن شأنه الدخول بالأفراد والأمم فى طرق جانبية تؤدى فى أحيان كثيرة الى متاهات بعيدة عن المسار الصحيح . ولاشك فان العودة الى المسار الصحيح تكلف الأمة مالا ووقتا وجهدا مما يحدث فجوة واسعة بينها وبين الأمم التى تلتزم بالمنهج العلمى المحدد الواضح بعيدا عن الغموض والتهويمات . فى هذا يقول طه حسين فى كتابه « فى الأدب الجاهلى » :

« نعم ! يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربى وتاريخه أن ننسى عواطفنا القومية وكل مشخصاتها ، وأن ننسى عواطفنا الدينية وكل ما يتصل بها ، وأن ننسى ما يضاد هذه العواطف القومية

والدينيـــة ، يجب ألا تتقيـــد بشيء ولا نذعن لشيء الا مناهج البحث العلمى الصحيح . ذلك أننا اذا لم ننس هـــذه العواطف وما يتصـــل بها فسنضطر الى المحـــاباة وارضـــاء العواطف وسنشغـــل عقولنـــا بما لا يلائمها . وهل فعل القدماء غير هذا ؟ وهل أفســـد علم القدماء شيء غير هذا ؟ كان القدماء عربا يتعصبون للعرب أو كانوا عجما يتعصبون على العرب ، فلم يبرأ علمهم من الفساد لأن المتعصبين للعرب غلوا فى تمجيدهم واكبـــارهم فأسرفوا على أنفســـهم وعلى العلم ، لأن المتعصبين على العرب غلوا فى تحقيرهم واصغـــارهم فأسرفوا على أنفسهم وعلى العلم أيضا » .

ولم يقتنع طه حسين بالمنهج العلمى من الناحيـــة النظرية فحسب ، بل اتخذه اطـــارا لحياته العلميـــة والعملية فى آن واحد ، فهو لا يتعصب للعرب لمجرد أنه عربى ولا ينحاز ضد الحضارة الأوروبية لمجرد أنه شرقى ، بل يضع كل شيء تحت ضوء هادىء ولا يدخل اليه بنظرة مسبقة ، بل يبدأ فى الشـــك فى كل الآراء المسبقة ويمضى فيه الى أقصى الحدود حتى تكون نظرته

محايدة وجديدة كل الجد ، فلا يدلى برأى أو بحكم الا بعد الوصول الى مرحلة اليقين القائمة على أساس راسخ من العقلانية العلمية •

فمثلا عندما ذهب الى باريس ليدرس ابن خلدون لم يتحول الى مدافع عنه لمجرد أنه عربى مثله ، برغم أن المناخ الثقافى والفكرى فى فرنسا يشجع على هذا الدفاع نظرا للمكانة الرفيعة التى يتبوأها ابن خلدون عند المفكرين الأوروبيين عادة اذ يعتبره كثيرون منهم أبا لعلم الاجتماع وأستاذا لموتتيسكيو وكونت • ومع كل هذه الاغراءات التى تدفع الباحث الى الحماسة والتأييد المطلق والنظرة الآحادية الجانب ، نجد طه حسين ينظر الى مضمون البحث نظرة متزنة يحكمها المنهج العلمى ، فتكاد رسالته عن ابن خلدون تخلو من كل صفات التعظيم والتمجيد والتبجيل ، فابن خلدون هو ابن خلدون وكل ما يحتاجه هو التقييم لا التبجيل ، والتحليل لا التمجيد ، التوضيح لا التعظيم • وهذا المنهج قادر على اقناع العقل الأوروبى اقناعا دائما وذلك على النقيض من الحماسة التى ينتهى أثرها بانتهاء

فورتها . لذلك قوبلت رسالة طه حسين عن ابن خلدون بالاحترام العلمى فى الدوائر الثقافية الفرنسية .

ونفس النظرة العلمية التى نظر بها طه حسين الى عظماء المفكرين من العرب ، نجدها واضحة جدا فى تقييمه للفكر الأوروبى عندما اتصل به فى فرنسا . فلم ينبهر أو يذهل أو يصاب بعقد النقص التى كثيرا ما تصيب المثقفين الشرقيين عندما يذهبون الى الغرب وتجعل البعض منهم ينظر الى بلده نظرة قاصرة ظاهرها الاشفاق وباطنها الاستعلاء . لذلك استطاع طه حسين أن يستوعب الثقافة الأوروبية ، وأن يضع يده على ايجابياتها وسلبياتها دون تحيز أو انفعال أو انبهار ، ومن ثم استطاع اقامة قنطرة ممتدة ما بين الثقافة الأوروبية والثقافة العربية تساعد على تأكيد عوامل التأثير والتأثر بحيث لا تلتزم الثقافة العربية بدور المتلقى والمتأثر فقط بل تتعداه الى دور المتجاوب والمؤثر أيضا .

ونظرا لاتساع الأفق الذى يحتمه المنهج العلمى وصولا الى الحكم الصائب القائم على اليقين ، فلم

يحد طه حسين نفسه بحدود الثقافة الفرنسية بل انطلق الى الثقافة الاغريقيــة الأم وكذلك الثقافة اللاتينية ، ثم الثقافة العالميــة بصفة عامة • ومفهوم الثقافــة عند طه حسين يشــمل دراسة اللغــات والأدب والفلسفة والتاريخ والاجتمــاع والجغرافيا والعلوم الطبيعيــة والتجريبية • وهذه كلها أسلحة معاونة للباحث فى رحلته خلال الشك وصولا الى اليقين •

والمنهج العلمى عند طه حسين لا يحتمل وجود أقوال أو ألفاظ ليست ذات دلالة أو علاقة بأعمــال مادية أو فكرية ، فيجب أن يكون المعنى نابعا من الشىء وليس مفروضا عليه من الخــارج • فالفصل بين المعنى والشىء أو بين القول والعمل هو فصل بين الشــكل والمضمون أو بين الجسد والروح • والحياة لا تستقيم مع هذا الفصل الذى يعوق التسلسل المنطقى للأفكار والمعانى ، وهو التسلسل الضرورى لكل تقدم حضارى• لذلك نجد طه حســين فى كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » يدعو الى أن « نعرض عن الألفاظ التى لا تغنى الى الأعمال التى تغنى » • ولكى نصل الى هــذه

المرحلة المتطورة من التقدم الثقافى والبناء الحضارى فلابد من احداث ثورة فى التعليم كما يقول : « يجب أن يتعلم الشعب الى أقصى حدود التعليم ففى ذلك وحده الوسيلة الى أن يعرف الشعب مواطن الظلم والى أن يحاسب الشعب هؤلاء الذين يظلمونه ويذلونه ويستأثرون بثمرات عمله » .

ويرى طه حسين أن كل العلوم التى توصل اليها الانسان ليست سوى الاستكشاف التدريجى لوحدة الكون وبالتالى وحدة المعرفة . والعقل هو الأداة التى منحها الله للانسان لكى يقوم بعملية الاستكشاف هذه والتى تبدو معقدة ودقيقة ولا نهائية . لذلك بدون العقل العلمى يتحول الكون الى فوضى شاملة وتهبط دنيا الانسان الى المستوى الذى يعيش عليه عالم الحيوان ، وعلى الانسان لكى يظل انسانا أن يواصل عملية الكشف حتى لا يصاب بالجمود والتحجر . صحيح أنه لن يوجد شيئا لم يكن موجودا من قبل لكن عقله سيعرف أشياء لم يكن يعرفها من قبل ، وبذلك تزداد صلته عمقا ووعيا بالكون وقوانينه ومن ثم

يشعر أنه يعيش فى بيته وليس غريبا عليه .
وفى هذا يوضح لنا طه حسين دور العالم والمؤرخ والمفكر فى ادراك هذه القوانين فيقول :

« ليس للمؤرخ المجيد عمل الا البحث عن هذه العلل ، والكشف عما بينها من صلة أو نسبة . فعمله فى الحقيقة وصفى لا وضعى أى أنه يدل على شىء قد كان ، من غير أن يخترع شيئا لم يكن ، مثله مثل السائح ، يعثر فى طريقه بالنهر لا يعرفه أصحاب تقويم البلدان فيدلهم عليه ويهديهم اليه . قد يسمى النهر باسمه ، وقد يجله أصحاب هذا العلم ، وقد ترفعه أمته الى حيث يلقى كبار الرجال ، ولكنه مع ذلك مستكشف ، لم يوجد النهر ، بل اهتدى اليه . كذلك شأن المشتغلين بالعلوم النظرية والتجريبية ، لهم فضيلة الاستكشاف ، فأما فضيلة الايجاد فليس لهم منها شىء ، فلم يكن من الرياضيين من أوجد المثلث ، ولا من اخترع نسبة بين عددين ، ولم يكن من أصحاب الطبيعة والكيمياء من اخترع قانون الثقل ، أو ابتدع عنصرا من العناصر ، انما حقائق العلم فى أنفسها قديمة

ثابتة واجبة ، فأما الحادث العارض ، فعلم الانسان بها واهتداؤه اليها ، سواء فى ذلك حقائق اللغة والأدب ، وأصول الفلسفة والحكمة » .

كان ايمان الأديب طه حسين بالعلم ايمانا راسخا ، لذلك لن نعجب عندما نسمع عن المناظرة التى أقامها الاتحاد العلمى بكلية العلوم بجامعة القاهرة والتى كان موضوعها « أيهما أهم : العلم أم الأدب ؟ » عندما كان طه حسين أستاذا بالجامعة . فقد كان المتناظران طه حسين والدكتور على مصطفى مشرفة . وقد يظن القارىء أن طه حسين أخذ جانب الأدب فى حين دافع مشرفة عن العلم ، لكن الطريف أن الدكتور طه حسين أخذ جانب الدفاع عن العلم فى حين انبرى الدكتور مشرفة للدفاع عن الأدب .

٤

توفيق الحكيم

أما توفيق الحكيم فيكتب فصلا كاملا فى كتابه « فن الأدب » تحت عنوان « الأدب والعلم » ، يوضح فيه كيف يجد عسرا فى قراءة القصص ، فى حين يجد اللذة فى مطالعة كتاب علمى . لكن الصعوبة عنده هى :

« أن أعثر على كتاب فى صميم العلم من تأليف عالم يستطيع أن يكتب ... فان أكثر العلماء لا يستطيعون أن يجلوا أفكارهم الا فى نطاق معادلاتهم

الرياضية ، ومصطلحاتهم الفنية التى لا يقدر على متابعتهم فيها غير العلماء .. أما أولئك الذين يبسطون العلم تبسيطا مسطحا فى كتب مقروءة للناس ، فلا أرى لهم قيمة فكرية بالنسبة الى ... بقى أولئك الذين أعنيهم وأحب أن أقرأ لهم ، وهم فى الغالب من طراز العلماء المطعمين بالفلسفة ، أو الفلاسفة المتصلين بالعلم ... يتخذون من العلم مادة تفكير وتأمل ، لا موضوع بحث فنى فى معمل ... ويفرغون نتائج تفكيرهم فى كتابات ، نستطيع فى أغلب الأحوال أن نتابعهم ، ان لم يكن فى مسالكها .. فعلى الأقل فى مراميها .

ما أعجب العلم ، اذا تراءى لعين الأديب .

انى لأسائل نفسى أحيانا : كيف استطاع العلماء أن يطلعوا على أعاجيب الكون ، دون أن ينقلبوا أدباء ؟ .. أما الأدباء فلا ينبغى أن يطلعوا على هذه الأعاجيب الا بقدر ، والا انقلبوا مجانين ! » .

ولعل الدكتور أحمد زكى خير مثل على طراز العلماء المطعمين بالفلسفة ، أو الفلاسفة المتصلين بالعلم

الذين يعنيهم توفيق الحكيم . ففى كتابيه الموسوعيين « مع الله فى السماء » و « مع الله فى الأرض » يتخذ من العلم مادة تفكير وتأمل ، لا موضـوع بحث فنى فى معمل . لذلك هناك متعة فكرية وذهنية بل ووجدانية فى متابعة كتاباته العلميـة كما نجـد ـ على سـبيل المثال ـ فى كتابه « مع الله فى الأرض » الذى يعالج فيه الجوانب العلمية والفلسفية والروحيـة المرتبطـة بالمملكة الحيوانية ، والمملكة النباتية ، والخمـائر ، والهضم ، والتغذية ، والجهاز العصبى ، وعالم الديدان، الحشرات ، والعقـارب ، والأسـماك ، والضفادع ، والزواحف ، والسـحالى ، والتماسـيح ، والثعابين ، والطيور ، والدورة الدموية فى الانسـان وفى سائر الحيوانات ، والتنفس ، والتناسل ... الخ .

كل هذا من خلال منطق علمى متماسك يبلور لنا وحـدة الكون والمعـانى الرائعة الكامنـة فيهـا .

وهـذا المنطق العلمى يتشـابه الى حد كبير مع منطق الفنان الذى يقول عنه توفيق الحكيم :

« ما الفن الا منطق فى رداء جميل .. « بيتهوفن »

فى عالم الأصـوات هو سيد المنطقيين بلا مراء .. انه « أرسطو » الموسيقى .. أنغامه تنساب فى منطق عجيب خلاب .. مقدماتهـا تفضى الى نتائجها الحتميـة .. وتتسلسل مثل أبرع الأفكار الفلسفية احكاما .. واذا كان الخلق صورة من الخـالق .. فلابد أن يكون المنطق ــ وهو روح الفن ــ من خصائص الفنان .

كل فنان منطقى مع نفسـه وحيـاته وشخصيته والظروف التى فيها يعمل وينتج ويخلق . ولا أستطيع أن أصدق شيئا غير ذلك .. ولكنه نوع من المنطق خاص به ، ملائم لحيـاته وظروفه الخاصـة ، لا علاقة له بالمنطق العـام الذى اصطلح عليه المجتمع ، وسنه شريعة للناس ، بغير تفريق ولا تمييز .

ان الفنان لا يتقيد بنظرة الناس الى الأشياء .. لأن الناس تضـع نظارات مصنوعة سلفا لكل أمر من أمور الدنيـا .. أما هو فينظر الى الأشياء بعينه هو المجردة عن كل منظار صنع بيد غيره ، فيرى بالضرورة غير الذى يراه الآخرون .. انه يبتدع منطقـه بنفسه

كما يبتدع فنه ، فاذا أدهشت الناس تصرفاته رموه بالشذوذ » .

أى أن الحكيم يحتم على الفنان ألا يلتزم بحدود الواقع التقليدى والا وقع أسيرا له . كذلك العالم يطور هذا الواقع ويوسع رقعته مع كل انجاز جديد له . لذلك يؤكد الحكيم « أن الفكر صحو لا نوم ، وأن المفكر هو أشد الناس يقظة ، لأنه يجب أن يرى للناس ما لم يروا .. وأن يبصرهم بما لم يبصروا .. وأن ينبههم ويهديهم وهو مكتمل العقل ، متفتق الذهن ، متسع الأفق والحيلة والمعرفة والتجاريب » . ومن ثم فان مهمة الأدب فى نظر الحكيم هى « أن يعين الناس على تفهم حكمة الخلق وروح الوجود .. وافهام البشر أن السعادة عمل وكفاح ، وتقدم وتطور » .

والفارق بين الفنان والعالم ـــ فى نظر الحكيم ـــ أن الفنان يكشف عن الطبيعة من خلال نفسه ، فى حين أن العالم يكشف عن الطبيعة من خلال المجهر . فالفن يقول « أنا » أى « نفسى » ، والعلم يقول

« هو » أى « الشىء » « وكلاهما يكمل الآخر فى بناء المعارف الانسانية . أما أن يخدم الفنان والعالم أمته وقومه ، فهذا واقع بالبداهة والضرورة ، لأن آثار الفن والعلم لا تبقى ، الا اذا رأى الناس فى بقائها منفعة . فلا ينبغى أن نقول للفنان والعـالم : « اصنعا شـيئا للناس » بل يجب أن نقول لهما فقط : « اصنعا فنـا وعلمـا » .

وفى كتاب « زهرة العمر » يستشهد توفيق الحكيم بعبـارة مشهورة للأديب الانجليزى أولدس هكسلى فيقول معه : « ان الفن ليس هو الحقيقـة وليس هو الواقع ، بل هو شىء آخر : انه الحقيقة مقطرة ومصفاة كيميائيا » ويعقب الحكيم على هذا التفاعل الكيميائى فى الأدب فيقول :

« هـذا صحيح . واذا كان المـاء يصفى ويقطر للناس فى معمل كيميائى ، فان الحقيقـة تصفى وتقطر للناس فى معمل المؤلف الروائى . وهـذا المعمـل هو « الفن » . نعم ، ان الفن ليس الطبيعة ولا الحقيقة ،

انما هو تقطير الطبيعـة والحقيقة من خلال « امبيق » الفنان » .

لذلك فان الفن ـ عند الحكيم ـ يستلزم ضربا من الاختيار أو الانتقاء ، مثله فى ذلك مثل العلم الذى يختار العناصر المؤدية الى هدفه .

وعندما يعشق العالم الأدب وفنونه فانه يستخدم النظرة العلمية الثاقبة فى تحليله للأعمال الأدبيـة أو فى ابداعها اذا وجد فى نفسه المقـدرة على ذلك . ولعل الدكتور حسين فوزى ينتمى الى الفئـة التى أسماها الحكيم « بطراز العلمـاء المطعمين بالفلسـفة » ، بل ان حسين فوزى يضيف بعد الفن والأدب الى الفلسفة . وهو يتفق تماما مع توفيق الحكيم عندما يقول فى مقال له بجريدة الأهرام فى ١٤ أكتوبر ١٩٧٦ :

« انه لكى نطرح عنا اليأس ، يجب ألا نزدرى كلمة « الخيال » ، ويكفى أن نتذكر أن كل تقدم عملاق فى تاريخ البشرية قد اعتبر فى أول أمره من قبيل الخيال، فمنذ خمسين عاما فقط ، كانت الرحلة الى القمر تعتبر

اغراقا فى التخيل •• وانى لأذكر كلمة للعالم العبقرى آينشتين ، قال فيها « ان الخيال أهم من المعرفة » •• لماذا قال ذلك هذا الرجل الذى تقوم حياته على العلم ؟ لأنه يعلم أن المعرفة الخلاقة ليست سوى ثمرة للتخيل » •

٥

حسين فوزى

هـذا الخيال نجده يحيط بكل كتابات حسين فوزى ، سواء كانت علمية أو فنية • ففى كتابه « سندباد الى الغرب » ينسج لنا خياله صورا وانطباعات وتأملات من الحياة فى صميم الحضارة الغربية • صحيح أن المشاهدات الواقعية كانت الأساس الذى أقام عليه كتبه فى أدب الرحلات مثل « سندباديات طيارى »، و « سندباد مصرى » ، و « سندباد عصرى » ، الا أن الخيال كان النسيج الذى منح الأحداث والوقائع دلالاتها الانسانية والفنية والعلمية والحضارية •

ولا غرو فى ذلك فقد كان حسين فوزى قبل سفره فى بعثته العلمية فى فرنسا فى عام ١٩٢٥ يعالج القصة القصيرة وألف بالفعل نصا كاملا للأوبرا ، ثم حاول ذات صيف بفرنسا كتابة قصة طويلة . وفى نهاية الأمر قادته أسفاره فى سنوات التحصيل الى أدب الرحلات ، فخرجت كتبه فى أغلبها رحلات مادية فى المكان ، أو فكرية فى الزمان : « سندباد عصرى » جولات فى المحيط الهندى ، « حديث السندباد القديم » دراسات الأساطير والقصص البحرية فى الكتب العربية ؛ « سندباد الى الغرب » صور من حياته فى دنيا الحضارة ، « سندباد مصرى » جولات فى رحاب التاريخ المصرى العريق .

والنهج الذى سلكه حسين فوزى فى رحلاته الأولى قضت به ظروف عمله ، فأصبح طبيعة ثانية . كانت أغلب تلك الرحلات على حساب البعثة التعليمية كعضو دارس للطب وعلوم البحار ، فكان واجبه الأول فيها العناية بالناحية العلمية ، ثم الانتفاع بأوقات الفراغ فى الاستمتاع بالأعمال الأدبية والفنية ، وزيارة المتاحف

والآثار الفنية ، والتاريخية ، سـواء فى المدينة التى يقصدها لغرض علمى أو فى الطريق اليها • وكان حسين فوزى ـ مثل الشاعر القديم ـ مبهورا بالطبيعـة التى يشاهدها فى أسفاره ، ولا سيما أن أغلب ما شهده كان غريبا عليه ، مثيرا لدهشته : الجبـال الشوامخ ، والغابات ، ومساقط المياه ، والثلوج والتزحلق على الجليد لذلك يقول فى « سندباد الى الغرب » :

« بورتو ـ كورسيكا فى ١٥ سبتمبر ١٩٢٦ •••

اذا اتجهت ناحية الشاطىء وجدت الغابة مكتسية ألوانها الخضراء زاهية ثم داكنة ، والجبال مشتعلة فى قناتها بتلك النار الحمراء المكونة من صخورها وشمس الغروب ، والظلال ترتفع لتحتل البقاع التى تودعهـا الشمس والألوان البنفسجية تكسو الجبال ، والضباب الخفيف الحالم يغطى بعض الجبهات بين رمادية المغاور وخضرة الأشجار ، وسط انعكاس آخر أنوار النهـار فى مياه البحر المـائجة والنهير المنسابة ، وأمام زرقـة الميـاه قرب الشـاطىء ، ولونها الذهبى عند مغرب الشمس ، وراء السحب تضىء أطرافهـا بلون مذهب

كأنها تزركش ثوب العرس فى هــذا المســاء .. فى أصوات السمفونية المؤلفة من حفيف الشجر وخرير النهر يضيع فى البحر ، والأمواج تتكسر فوق الصخر ، فيقوم الرغاء الأبيض فى أشكال سحرية كأن فينوس أخرى تخلق من الزبد . فى تلك الطبيعة الجميلة المتغيرة المتشكلة أفكر ، وأطالع ، وأتأمل الغروب » .

فى مثل هذه اللحظات يمتزج العــالم بالشــاعر بالفيلسوف بالفنان داخل وجدان حسين فوزى . فى مقال له بجريدة الأهرام فى ٥ نوفمبر ١٩٦٥ يصف رحلة الاياب الى الوطن فيقول تحت عنوان « خاتمــة مطاف طويل » :

« كانت رحلة الاياب الى الوطن عن طريق الشمال الاسكندنافى ، ثم عبر أوروبا ، صــورة مصغرة مركزة لسنواتى الخمس فى بلاد الغرب . وأخيرا أتساءل : هل أغرتنى تلك الحيــاة بالبقاء هنــاك دائما ؟ يجب أن أصدق مع نفسى : لقد ساورتنى فى بعض فترات نزوة من هذا القبيل . وكان من حظى أن تحصنت ضــد جرثومة الرومانتيكيــة ، ولو لم أقض عليهــا تماما .

فاستطعت أن أخضع عواطفى الهوجاء لقيادة العقل المفكر المدبر ، وذلك بفضل المنهج العلمى ، والنظام الصارم الذى يقضى به •

خاطبنى العقل بكلام كهذا : استسلامك للحياة الأوروبية معناه أنك تجبن أمام قفر الحياة الذهنية والفنية فى مصر ، ولا قيمة لحياة الاستسلام للدعة والرفاهية حتى ولو كانت دعة الفن ورفاهية الثقافة • الحياة جهاد يا صاحبى ، كتب على الجميع لا على الجنود وحدهم فى ساحات الوغى والبسالة ، ليس مكانها ميدان القتال وحده •

بهذا تكلم العقل ، وأخجل أن أضيف قولا تلوكه الألسن حتى فقد جديته : « أنت ابن الوطن الفقير الى الله تعالى ، لاشك أنه بحاجة الى كل فرد من أفراد شعبه ، مهضوم الحقوق من السماء والأرض ، والوطن أسدى اليك معروفا ، مهما صنعت حتى آخر رمق لك فى الدنيا فلن تستطيع الوفاء به •

٦

محمد كامل حسين

ونفس المنهج العلمى الفنى ينطبق على العــالم وطبيب العظام الدكتور محمد كامل حسين الذى أثبت مقدرته الخلاقة فى مجــال الابداع الأدبى عندما كتب عمله الأدبى الرفيع « قرية ظالمــة » ، كما أثبت قدرته على النقــد الأدبى الواعى فى كتابه « الشــعر العربى والذوق المعــاصر » . وقد قاده منهجــه العـلمى الى استنباط رؤية جديدة للشعر العربى تقسمه الى ضربين : شعر الاحتراف وشعر الطبع ، وهما يختلفان اختلافا

شديدا فى الروح والموضوع والأسلوب والأغراض .
لذلك يعدهما كامل حسين فنين متباينين لا يجمع بينهما الا أن كليهما كلام منظوم على نحو واحد . وبالفعل يطبق هـذا المنهج على شعر المعلقات ، وعمر بن أبى ربيعة ، والفرزدق ، وجرير ، وبشار بن برد ، والنابغة الذبيانى ، وأبى نواس ، والمتنبى ، وأبى العلاء المعرى. كما يحلل فى ضـوء هـذا المنهج عنصرى الموسـيقى والتصوير فى الشـعر العربى . يحدد الدكتور كامل حسين الحد الفاصل بين شعر الاحتراف وشـعر الطبع فيقول :

« ليس من الضرورى فى شعر الاحتراف أن يكون صاحبه قد تكسب به فعلا ، وان كان أكثره عـاد على الشعراء بالصلات السخية ، وانما أعنى به الشـعر الذى يعبر فيه الشاعر عن أشـياء لا تمس أعمـاق نفسـه ولا تصدر عن عواطفه . وعمل الشاعر فى هذا الشعر أشبه الأشياء بعمل الصائغ المـاهر الذى يعنيه أن يخرج حلية جميلة تدل على المهـارة ودقة الصناعة ، ولا يدعى أحد أن الصائغ بهذه الصياغة المـاهرة يعبر عن نفسه ،

وأكثر الشعر القديم من هـذا التراث • وكان النقاد القدماء يعنون بهذه الدقة والمهارة ويعجبون بها ، ولهم الحق كل الحـق فى أن يعجبوا بما يروقهم ، ولكنـا لا نستطيع أن نجاريهم فى استحسان كل ما استحسنوه ، ولا أن نقيس جمـال الشـعر بالمقاييس التى وضعوها لتقدير هذا الجمال ، بعد أن تغير رأينا فى هذا النوع من الشعر ، شعر الاحتراف •

أما شعر الطبع فهو الذى يتحدث فيه الشـاعر عن احساسه وعواطفه وما يشـعر به من حب أو كره وما تركت فيه الحياة من أثر ، والدافع اليه صدق العاطفة وحسن الأداء الذى يحمل القارىء على أن يتأثر بهذه العواطف كما تأثر بها صاحب الشعر » •

ويستطرد كامل حسـين فى تحليله النقدى الممتع فيوضح أن شعر الاحتراف أعذبه أكذبه ، والجمـال فيه يرجع الى الصياغة ، فى حين أن شعر الطبع أعذبه أصدقه ، وأجوده خال من المحسنات اللفظية أو المعنوية، وأسلوبه مستقيم واضح ، فيه جد وصرامة وعواطف

انسانية يدرك صدقها أكثر الناس ، وهو ما لا نراه فى شعر الاحتراف . لذلك يطلب الدكتور محمد كامل حسين من النقاد المعاصرين أن يقدموا للمثقفين ومحبى الشعر ما فى الأدب العربى من شعر له قيمته الانسانية العامة ، وأن يدعوا شعر الاحتراف للمتخصصين ولمن يستهويهم هذا النوع من الجمال ، وهم قلة فى عصرنا هذا . وليس معنى هذا أن شعر الاحتراف كله غث فى حين أن شعر الطبع جيد ، لكن لكل من هذين الفنين مقاييس تختلف عن مقاييس الجمال فى الفن الآخر .

٧

زكى نجيب محمود

أما فيلسوفنا الدكتور زكى نجيب محمود فيقول ان العلمـاء والأدباء جميعـا مسـئولون عن الفجوة المصطنعة بين العلم والأدب لأن الفكر العربى لم يصـل بعد الى التحديد الصحيح والواضح لمفهوم العلم فى العصر الحديث . ففى مقال له بجريدة الأهرام بتاريخ ١٨ ابريل ١٩٧٥ يوضـح أنه لو كان هـذا الخلط فى المفاهيم مقصورا على عامة الناس لالتمسنا الأعـذار ، ولكنه خلط رأيناه عند خاصـة الخاصة من العلماء ! فما أكثر ما تسمع أو تقرأ لواحد من هؤلاء العلمـاء

قوله : لقد كنت فى صباى مولعا بكتابة القصة أو قرض الشعر ، وأردت الالتحاق فى المرحلة الجامعية بكلية الآداب ، لولا أن والدى قد أرادانى على دراسة الطب أو الهندسة أو غيرهما من فروع العلم . نسمع ذلك من خاصة الخاصة : كأنهم نظروا حولهم فوجدوا كلية الآداب ـ أو ان شئت فقل الكليات الأدبية عامة ـ تخرج للناس زمرا من القصصيين والشعراء ، وكأن مثل هذا الابداع الأدبى ليس موهبة الهية يوهبها الله من شاء من عباده ، بغض النظر عن طريق التعليم كيف سار بصاحبه ! نعم يقولون ذلك ، كأنهم نظروا حولهم فلم يروا كلية الآداب تخرج لهم دارس الجغرافيا الذى لا تكاد تعرف أين يقع الخط الفاصل بينه وبين دارس الطبيعة أو الجيولوجيا أو الاقتصاد ؛ أو هم لم يروها تخرج لهم دارس التاريخ ودارس الآثار اللذين يعملان مع وثائق وحفائر هى أبعد ما تكون عن كتابة القصة وقرض الشعر ، أو تخرج لهم دارس الفلسفة الذى تدربه دراسته على التحليل العقلى واقامة البرهان على ما يراد له قبوله من مذاهب وأفكار ، تدريبا كثيرا

ما تضيق له صـــدور المتخصصين فى العلوم الطبيعية ، اذ يرون أنفسهم أكثر منه تســاهلا فى منطق العقل ، لا بل ان أقسام اللغات التى قد توهم الغرباء بأنها قد أقيمت لتخرج لهم الأدباء ، انمــا هى أقســام تدرس اللغات فى نحوها وصرفها واشتقاقها وتاريخها ، درسا قد تبلغ به خشونة الجفاف العلمى حدا لم يألفـه سائر الدارسين ، وهى ان درست الأدب ــ ولابد لها أن تفعل ــ فهى تدرس النتاج الأدبى كما يدرس الكيماوى عناصره ، والجيولوجى طبقات أرضه •

ولم يقل الدكتور زكى نجيب محمود شـيئا عن علوم أدبية كعلم النفس وعلم الاجتمــاع التى يلحظ ما يشعر به أصحابها من ضيق ، لأنهم يجدون أنفســهم فى منزلة وسطى بين المنزلتين ، فتراهم أحيانا يتشنجون من غضب ــ ولهم كل الحق ــ اذا نسبت دراساتهم الى الأدب لأنها ليست منه فى كثير أو قليــل ، ولكنهم اذا أرادوا أن يطرقوا أبواب العلوم المعترف بعلميتهــا ، وجدوا تلك الأبواب موصدة فى وجوههم •

وأساس العلة ــ فى نظر زكى نجيب محمود ــ خلط فى التقسيم ، وهو خلط قد نرى منه صورا مختلفة فى البلاد المختلفة ، لكنه لا يتخذ فى أى مكان آخر مثل هذه الصورة الجادة التى يتخذها عندنا ، وهو يقينا لا يخلق عند الناس فى سائر البلدان ما يخلقه عندنا من الوهم بأن دارس الأدب « أديب » ، وأعجب العجب هنا ، هو أن من الأدباء والشعراء عندنا ، عددا يلفت النظر من أصحاب الدراسة العلمية ، فهذا طبيب يكتب القصة ، وذلك مهندس يقرض الشعر ، وكانت هذه الظاهرة وحدها كافية لتصحيح الخطأ ولكنها لم تفعل .

ويحاول زكى نجيب محمود اقناع الناس فى العالم العربى بأن العلم طريقة فى البحث ، سواء كان موضوع البحث من الكيمياء أو من التاريخ . فالعلم منهاج فى النظر ، فاما اتبعناه فى الدراسة ــ كائنا ما كان موضوعها ــ لتكون دراسة علمية ، واما تنكرنا له ، فلا تكون الدراسة عندئذ جديرة باسمها . لكن الخلط بين الموهبة الفردية فى مجال الابداع الأدبى وبين المنهج

العلمى كشرط أساسى يجب توافره فى أية دراســة سواء كانت علمية أو أدبية ، هــذا الخلط أدى الى الظن بأن العلم مطلوب عندما يكون الموضــوع جانبا من الطبيعة الحية أو الجامدة ، أما اذا كانت المشكلة العارضة ماسة بحياة الانسان من حيث هو انســان ، فعندئذ يكون الركون الى شىء آخر غير العلم وطرائقه ، لمــاذا ؟ لأنهم يظنون أن الانسان ومشكلاته من طبيعة خاصة ، تداخلها المشــاعر والدوافع والقيم ، وما الى ذلك من أمور قد تستعصى على مخابير المعامل وأرقام الاحصاء ، فنتج عن هذا الظن الخاطىء أن اتسعت الهوة بين درجة التقدم فى العلوم الطبيعية ، ودرجة التقدم فى معالجــة المشكلات البشرية ، حتى لقد قيل ــ وهو قول شائع ــ ان مدنية هذا العصر مدنية عرجــاء ، تسير على قدم واحدة : فبينما بلغنا الأوج فى المعرفة العلمية بالطبيعة ، نزلنا الى الحضيض فى العلاقات الانسانية بكل ضروبها .

ويرى زكى نجيب محمود أن هــذه المشــكلات الانسانية ــ كغيرها ــ انما تحل بطرائق العــلم التى تعرفها العلوم الطبيعية اذ ليس للعلم ســواها ، وهى

مهمة يجب أن تقع بأكملها على عاتق القائمين بالدراسات التى توصف بأنها أدبيـــة • فاذا كانت كليـــات الطب والهندســـة والزراعة والعلوم تضطلع بجوانب العلم الطبيعى ، فكليات الآداب والتجارة والحقوق والاقتصاد والعلوم السياسية ، تضطلع بجوانب العلم الخـــاص بعلاقات الناس بعضهم مع بعض ، على أن يكون مفهوما بأن منهج البحث فى كلتا الحالتين واحد ، وان بدا للعين العابرة أنه ليس كذلك •

هنا يطالب زكى نجيب محمود بتوسيع رقعة الفكر العلمى ، بقدر تضييق مساحة الرأى • وهى مطالبـــة لا تمس أقل مساس بالجوانب الوجدانية من حيـــاة الانسان ، فله أن يشتد فى ايمانه وأن يقوى بوجدانه ، والا ضاع منه الجوهر الأصيل الذى يجعل منه انسانا ، لكن ذلك أمر يختلف عن معالجة المشكلات الاجتماعية التى تكتنف حياة الناس ، والتى يراد لها أن تزول ، فنحن مازلنا ــ ولعل ذلك يشيع فى العالم كله بدرجات تقل أو تزيد ــ مازلنا نفكر فى أمثال هذه المشـــكلات بطرائق السحرة فى غابر العصـــور ، فمـــاذا كان يصنع

الساحر ليحل الانسان مشكلاته ؟ كان يلفظ له بكلمات ، أو يكتب له كلمات ، حاسبا أن مجرد النطق بتلك الكلمات أو كتابتها ، كاف لمجلبة الخير ودرء الخطر ، وهكذا نفعل اليوم . فعلاج أية مشكلة عندنا هو مزيد من خطب تقال ، ودروس تلقى ، ومقالات تكتب ، واذاعات تذاع ، وكتب تنشر ، وهى كلها كلام فى كلام فى كلام . لذلك فانه من المحتم علينا الآن أن نعالج الأخطار التى نشأت عن تقدم العلوم الطبيعية وتقنياتها فى عصرنا ، بمزيد من استخدام المنهج العلمى فى مجال الدراسات الأدبية والانسانية .

وفى عدد جريدة « الأهرام » الصادر بتاريخ ٩ ديسمبر ١٩٧٦ كتب الدكتور زكى نجيب محمود مقالا بعنوان « التقاء الثقافتين » أوضح فيه أن ظاهر الازدواج الثقافى مسألة يعانى منها العالم كله بدرجات تتفاوت ضيقا واتساعا ، لكنها ظاهرة فى حياتنا نحن الثقافية تبدو أفدح منها فى أى مكان آخر من أقطار العالم المتحضر . فمنذ أن أصدر س.ب. سنو فى انجلترا سنة ١٩٥٩ كتابه المشهور الذى جعل عنوانه

« الثقافتان » والمشـــكلة مطروحة بين مفكرى أوروبا وأمريكا بصورة جادة ، أكثر جدا مما كانت عندهم قبل ذلك . ولقد قصـــد الروائى الانجليزى المعـاصر سنو بالثقافتين العلوم والآداب ، لكنه حدد العلوم بالعلوم التجريبيـــة الطبيعيـــة ، كمـــا حدد الآداب تحديدا واسعا لتشمل كل العلوم الانسانية والاجتماعيـــة التى نضعها نحن فيما نسميه بالكليات النظرية .

هنا يبدو المنهج العلمى الشامل عند زكى نجيب محمود بحيث لا يؤكد كل ما يكتب فى بلاد الحضـــارة المعاصرة ، بل يستخدم نظره العلمى الثاقب فى تحليـــل كل ما يقال بصرف النظر عن مصـــدره . لذلك يهاجم رأى سنو ويعتبره أعجب تسمية يمكن أن يتصـــورها انسان فى دنيا الفكر والثقافة ، وأقوى دليل على مدى ما تختلط به الأمور فى أذهاننا ، لأن العلوم النظريـــة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمـــة هى المواد العلميـــة فى تسميتنا ، وأما المواد الأدبية فأقرب جدا الى حيـــاة الناس كمـــا يعيشونها كل يوم ، من لغـــات الى قانون

واقتصاد ونفس واجتماع ، ودور « النظرية » فيهــا أضعف جدا من دورها فيما نسميه نحن بالمواد العلمية .

ولمــا كان س.ب. سنو من رجال العلم ورجال الأدب فى وقت واحد ــ مثل الدكتور محمــد كامــل حسين والدكتور حســين فوزى فى مصر ــ فقد كان واعيا لحقيقة قضية « الثقافتين » التى تناولها بالدراسة العلميــة ، لكنه انتهى الى نتيجــة أفزعت كثيرين من المشتغلين بالأدب . فقد قــال ان المعول الأســاسى فى تقدم الانســان هو للعــلوم وحــدها ، وأما الآداب وما يدور فى فلكها فهى على أحسن الفروض أمور تملأ بها ساعات الفراغ .

وكما تصــدى زكى نجيب محمود لرأى ســنو الداعى الى انفصــال العلم عن الأدب ، تصــدى له الكثيرون ، وكان من أهمهم أولدس هكسلى فى دراسة مسهبة عنوانها « الأدب والعلم » أكد فيها بالبرهــان والدليل ضرورة الاعتراف لكل من الثقافتين بوجوده وأهميته ، والعمــل من أجل التقــاء الثقافتين معا فى

الانسان عقلا ووجدانا . وفى رأيه أن هـذا الالتقـاء لا يتحقق الا اذا ظهر فينا الفنان العملاق الذى يدمج فى عمله الفنى لغة الناس كما يتكلمونها ويفهمونها ، بما فيها من غموض وايحـاء ، ولغة العلم بكل ما عرفت به من دقة صارمة . وعندئذ فقط يجد الانسان حقيقة نفسه ماثلة أمامه بشطريها متحـدين : الشطر الذاتى الخاص ، والشطر الموضوعى العام .

ويؤمن زكى نجيب محمود بأن اللقاء بين الثقافتين يتمثل عمليا فى تدخل التطبيقات العلمية والأسـلوب العلمى فى شرايين الحياة الاجتماعية العملية دخولا يجعل تلك الحياة علما مجسدا ــ اذا صح هـذا التعبير ــ وبعدئذ يجىء الأديب لينفعل بالحياة المحيطة به كمـا يصنع الآن ، فاذا بانفعاله هـذا متأثر الى أبعد مدى بحياة علمية الأصلاب ، علمية اللحم والعظم والدم : الحكومة فيها جهاز علمى تقوم عليه جماعة العلمـاء ، والتربية فيها عملية بكل ما تعنيه العلوم من دقة منهج وتحديد موضوع وأهداف ، وكل هـذا فى الجـانب

الاقتصادى من الحياة ، وفى جانب التشريع ، بل وفى جوانب الترقيه .

ونحن اذا كنا نتفق مع الدكتور زكى نجيب محمود فى ضرورة اقامة صرح حياتنا الاجتماعية والاقتصادية على أساس متين من المنهج العلمى ، فاننا نسمح لأنفسنا بالاختلاف معه عندما يضع الأديب فى مؤخرة الحياة العملية بحيث اذا قامت على المنهج العلمى فانه يكتب أدبا يحمل سمات المنهج نفسه ، واذا كانت عشوائية فى وسائلها وغاياتها ، فلا يملك الأديب سوى انتاج أعمال مصابة بنفس التفكير العشوائى المشوش . وبذلك ينزع الدكتور زكى نجيب محمود عنصر المبادرة من يد الأديب ويجبره على انتظار ما تأتى به صروف المجتمع والدهر ، فى حين أنه يتحتم على الأديب أن يبث فى وجدان الناس روح المنهج العلمى من خلال أعماله الشعرية والمسرحية والقصصية . ذلك أن دوره الريادى فى تربية عقل الجماهير يواكب تماما دور العالم فى هذا المجال الحيوى الخطير .

ومن الآراء الجديرة بالذكر فى هذا المجال رأى أولدس هكسلى فى كيفية التقاء العلم والأدب • فقد أوضح أن ذلك الالتقاء يمكن أن يتحقق اذا عرف الأديب كيف يجرى فى أدبه شيئا من لغة العلم ، بحيث لا يكون ذلك سببا فى تفكك القطعة الأدبية • فقد كان تصور هكسلى للقاء بين العلم والأدب لقاء مباشرا • لكن زكى نجيب محمود يرى أن هذا اللقاء المباشر لا يجدى الا قليلا ، وقال ان هكسلى لم يكن على صواب فى هذا الصدد ، لأنه يحتم أن يكون اللقاء بين العلم والأدب لقاء غير مباشر • ومع تقديرنا لرأى زكى نجيب محمود ، فاننا نقول ان هذا اللقاء غير المباشر سيجعل من الأدب مجرد زخرف خارجى يمكن أن يستغنى عنه المجتمع تماما فى قضاياه المصيرية الملحة• لذلك كانت دراستنا هذه اثباتا علميا على امكان اللقاء المباشر بين العلم والأدب •

لكن المأساة فى العالم العربى لا تتمثل فى انفصال العلم عن الأدب فحسب ، بل ترجع الى انتشار روح

الخرافة بين مثقفينا ــ علميين وأدبيين على السواء .
يقول الدكتور زكى نجيب محمود :

« لقد شهدت بعينى كيف تبادل الكبار من مثقفينا ــ علميين وأدبيين على السواء ــ الأحاديث فيما بينهم عن أشباح تصعد الى السماء وأشباح تهبط الى الأرض ، وعن خوارق ينجزها من أصابه عته أو بلاهة ؟ فمثل هذه الخوارق فى ثقافتنا العامة لا تتحقق على أيدى أصحاب علم أو ذكاء ! فهؤلاء الكبار من مثقفينا ــ ودع عنك صغارهم ؟ ثم لا تسأل عن من لا ثقافة له ــ هؤلاء الكبار من مثقفينا يقصرون تفكيرهم العلمى على حجرات المعامل وقاعات الدرس ! حتى اذا ما انطلقوا أحرارا من تلك الحجرات والقاعات ، جاز لهم أن يقبلوا المستحيل ! وهل هو القليل النادر فى حياتنا الفكرية أن نقرأ لبعض حملة الأقلام عندنا ، حكايات تروى عن عجائب من تلك الخوارق أشكالا وألوانا » ؟

ولم يقف الأدب العربى المعاصر مكتوف الأيدى أمام الصراع الدائر فى حياتنا بين العلم والخرافة . ففى

روايات وأعمال طه حسين والمـازنى ونجيب محفوظ ويحيى حقى وغيرهم يتجسـد موقفنا من حضـارة العصر ، حيث نجد الشخصيات التى ظفرت بنصيب من علوم العصر ، تحاول أن تحيا كما يحيا أهل العصر ، لكن الآخرين يتنكرون لها . لذلك كانت هذه المشكلة التى قوامهـا صراع بين مجمـوعتين من القيم نغمـة أساسية ترددت فى كثير من الأعمال الأدبية ، ويكفى أن ندلل على هـذا الاتجـاه برواية يحيى حقى « قنديل أم هاشم » على سبيل المثال . فقد برز العلم فى هـذه الأعمال لأول مرة بمفهومه الحديث المعروف عالميـا . لذلك يفرق الدكتور زكى نجيب محمـود فى كتـابه « تجديد الفكر العربى » بين العـلم بمفهومه العربى القديم والعلم بمعناه العالمى الحديث فيقول :

« ان من علامات هذا العصر المميزة ، أنه « عصر العلم » المقترن « بالعمل » حتى لتجد فلاسـفة عصرنا منصرفين بكثير من عنايتهم وجهدهم نحو تحليل العلاقة بين العلم والعمل تحليلا ينتهى ببعضهم الى القول بأن العلم والعمل موصول أحدهما بالآخر ، فاذا وجدت « علما »

مزعوما لا يجيء بمثابة الخطـة الدقيقة لعمل يؤدى ، فقل انه ليس من « العلم » في شيء الا باسم زائف ، وأن هـذا الفريق من الفلاسفة المعاصرين لينكرون أشد انكار أن يكون هناك ما يجوز تسميته « بالعلم النظرى » الذى لا صلة له بدنيا التطبيق ، بل انهم ليتطلبون من العلماء اذا حددوا مصطلحاتهم العلمية ، أن يحددوها بما يسمونه « تعريفا اجرائيا » ، أى أن يحددوها بالجوانب العلمية التى تنطوى عليها تلك المصطلحات ، فاذا وردت فى لغتهم ألفاظ رئيسية لا تشير الى « اجراءات » فعلية معينة رفضوا مشروعيتها من الناحية العلمية ، واننا لنقول عن عصرنا انه عصر « التكنيات » (التكنولوجيا) ، وما الأجهزة التكنية هذه الا « الأفكار » العلمية وقد برزت الى دنيا العمل .

فاذا قال قائل عن عصرنا انه عصر « العلم » و « العمل » كان لقوله معنى محدد بمضمونات العصر ومفهوماته ، « فالعلم » ــ من ناحية ــ هو العلم الطبيعى ، و « العمل » ــ من ناحية أخرى ــ هو تطبيق العلم بالأجهزة التكنية على اختلاف مجالات العلوم

وتطبيقاتها ، ان كلمة « علم » بهـذا المعنى المحدد لم تدخل اللغة الانجليزية نفسها الا في الثلث الأول من القرن المـاضى ، مما يدل على أن ما قد سبق ذلك من عـلم لم يكن به كل المقومات التى تميز عـلم العصر الراهن ، وانى لأذكر فى هـذا الصدد ــ وعلى شفتى ابتسامة اشفاق وأسف ــ ان أحد كتابنا المرموقين قد وقع على هذه الحقيقة الغريبة فى بعض ما قرأ ــ وكان ذلك منذ أعوام قلائل ــ فأسرع الى صحيفته يكتب مفاخرا هذا العصر المتعجرف المغرور بتراثنا ، فمنذ كذا قرنا من الزمان ــ هكذا قال الكاتب ــ وتراثنا ملىء « بالعلم » اسما ومسمى ، وها هى ذى انجلترا لم تعرف « العلم » الا منذ أقل من مائة وخمسين عاما ، ولو تريث كاتبنا لحظة ليراجع معنى الكلمة فى الحالتين، لوجـد الفرق بين المعنى الـذى كان والمعنى الـذى استحدث هو ــ كمـا قلت ــ كالفرق بين القطبين ، فاللفظ واحد ــ فى العربية ــ والمضمون مختلف » .

٨

نجيب محفوظ

ولعل روايات نجيب محفوظ من الأعمال الأدبية الرائدة التى جسدت هـذا المفهوم المعـاصر للعلم • ولا غرو فى هذا فان نجيب محفوظ من الأدباء الذين يرون فى العلم الوسيلة البشرية الوحيدة لانقاذ الانسان والرقى به • وأذكر له حديثا نشر فى مجلة « العلم » التى تصـدرها أكاديمية البحث العلى والتكنولوجيـا المصرية ، دافع فيه عن العلم دفاعا مجيدا قد لا يقوم به عالم متخصص فى مجاله • بل ان من يقرأ دراستى عنه « قضية الشكل الفنى عند نجيب محفوظ » سيكتشف

أن التفكير العلمى كان المحرك الرئيسى وراء سلوك بعض شخصياته الهامة ، لدرجة أنها تصرح بأن خلاص هذا العالم لن يتأتى الا عندما يحكمه العلماء . كذلك فى مجلة « الطليعة » عدد ابريل ١٩٧٧ ، نجد له حديثا آخر لا يمل من التأكيد على قيمة المنهج العلمى فى حياتنا . فهذا المنهج لا يقتصر على العلماء فى دراساتهم ومعاملهم ، بل يمتد ليشمل كل الناس فى حياتهم العملية اليومية ، لأنه الأداة الوحيدة لاستغلال وقتهم وجهودهم فى تطوير حياتهم والرقى بها . لذلك يرى نجيب محفوظ أنه من ضرورات العصر أن يتشرب الانسان العادى بالمنهج العلمى بحيث يتحول الى أسلوب للتفكير والسلوك المعتاد .

ويرى نجيب محفوظ أن أدب العلم فى حقيقته عبارة عن رحلة مشوقة مثيرة فى كهوف العقل الانسانى، وهى أمتع بكثير من رحلات المغامرات فى الصحارى والمحيطات والكواكب الأخرى . لكن نجيب محفوظ يؤمن بأنه بالاضافة الى عنصرى التشويق العقلى والاثارة الفكرية ، هناك الدور الذى يتحتم على الأديب العلمى أن يقوم به ويتمثل فى التنبؤ ــ اعتمادا على

تصور العلماء ـ بما سيكون عليه العالم فى الخمسين أو المائة سنة القادمة ، وأثر ذلك على الانسان . وبصرف النظر عن التخصص العلمى فان الانسان العادى يستطيع أن يستوعب هذه المفاهيم الجديدة من خلال الأعمال الأدبية التى تدخل فى صميم حياته وحياة أولاده .

كما يطالب نجيب محفوظ العلماء بتأليف الكتب العلمية المشوقة التى تسهل قراءتها على القارىء العادى . فالعلم عالم كله عجائب وغرائب وامتاع واثارة ، وكل هذا ـ اذا انتشر ـ من شأنه أن يخلق عقلية جديدة . لذلك يعتبر نجيب محفوظ الدكتور أحمد زكى من الرواد الذين قربوا المسائل العلمية للجمهور بطريقة مشوقة وممتعة يعتبرها نجيب محفوظ أمتع من كثير من القصص وروايات الرحلات والمغامرات . وهذه المتعة الحقيقية استشعرها نجيب محفوظ فى قراءاته فى الفيزياء والفلك وعلوم الحياة .

واذا كان الأديب فى نظر نجيب محفوظ ضمير العصر وصوته فان العالم هو جوهره وروحه . لذا يتحتم عليه أن ينغمس فى بيئته المحلية حتى يبث روح المنهج

العلمى فى كل أرجائهـا ، فاذا كان العلم عالميا بطبيعته فانه محلى تماما فى مجال تطبيقه العملى على البيئة . فليس الأديب فقط هو الذى يستوحى بيئته بل العالم أيضا ، وهو فى مقدوره أن يخدم أبناء بيئته بعلمه ، وفى امكانه أيضا الخروج بالدروس المستفادة الى المجـال العالمى حتى يستفيد منها البشر الآخرون فى حالة امكان تطبيقها فى البيئات المختلفة . فاذا كان العلم ينبع من العقل البشرى فان التكنولوجيا تتشكل طبقا لمتطلبات البيئة ، فالمسألة ليست قاصرة على مجرد الاسـتيراد والتطبيق . فمثلا يرى نجيب محفوظ استحالة مقاومة البلهارسيا فى مصر بأطباء ألمـان ، لأن المسألة لا تقتصر على علاج مرض معين بدواء محدد بل تتطرق الى حياة الفلاحين وأخلاقهم وأساليبهم فى التفكير والسـلوك ، وهذه خصـائص وعناصر لا يمـكن أن يستوعبها غير العالم المصرى ، ابن البيئة ذاتها . ولعل الأديب هو خير مساعد له فى هذه المهمة عندما يبلور له شخصـية الانسـان المصرى ــ بكل سلبياتها وايجابياتها ــ فى أعماله الأدبية .

٩

يوسف عز الدين عيسى

كان الحديث الذى نشر لنجيب محفوظ فى مجلة « العلم » ودافع فيه عن ضرورة العلم وحتميته بمثابة فاتح لشهية العالم والأديب الدكتور يوسف عز الدين عيسى لكى يكتب مقالين بجريدة الأهرام يناقش فيهما قضية العلاقة العضوية بين العلم والأدب : المقال الأول بعنوان « العلم والأدب والفن » فى عدد ٤ مايو ١٩٧٧ ، والثانى بعنوان « هل يمكن المفاضلة بين العلم والأدب ؟ » فى عدد ١٨ مايو ١٩٧٧ . فاذا كان نجيب محفوظ الأديب والروائى قد دافع عن

العلم ، فقد آل الدكتور يوسف عز الدين على نفسه أن يدافع عن الأدب والفن ، لأن عمله كأستاذ وعالم فى البيولوجيا لم يقف عقبة فى طريق تذوقه للفن وممارسته الفعلية للابداع الأدبى ، فهو من أشد المفكرين ايمانا بأن المعرفة الانسانية لا تتجزأ ٠

يعرف يوسف عز الدين الأدب بوجه عام بأنه القدرة على التعبير عن أفكار أصيلة بأسلوب معين يكون من شأنه نقل هذه الأفكار الى الآخرين وادراكها بأقل قدر من العناء ٠ والقدرة على التعبير مطلوبة من العلماء كما هى مطلوبة من الأدباء ، فالعالم الذى يلقى محاضرة أو يؤلف كتابا فى علم الحيوان أو علم النبات أو فى الطاقة الذرية بأسلوب سلس واضح يجعل المستمع أو القارىء يدرك بسهولة المعانى والأفكار التى يرغب المحاضر أو المؤلف فى التعبير عنها ، يمكننا بالمعنى الواسع أن نعتبره أديبا ، والمراجع التى تذكر فى نهاية أية رسالة أو بحث علمى فى الفيزياء أو الكيمياء أو البيولوجيا أو الرياضيات وغيرها ، تذكر فى بعض الأحيان تحت عنوان Literature أى أدب ٠

من هذا يرى يوسف عز الدين أن الأدب والعلم ليسا مبدأين أيديولوجيين متعارضين كالشيوعية والرأسمالية لا يمكن أن يتلاقيا ، بل هما مظهر من مظاهر النشاط الذهنى البشرى قد يكون فى تلاقيهما معا فائدة أكثر ، وكما أن الاتجاه السائد الآن فى المجال العلمى هو أن شتى فروع العلم كالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والرياضيات وغيرها ينبغى أن تتعاون معا للوصول الى حقائق علمية لم نكن لنتوصل اليها لو تباعدت التخصصات ، فكذلك الأمر بالنسبة للأدب والعلم ، قد يكون فى امتزاجهما معا اتاحة الفرصة للوصول الى علم أكثر وضوحا وأدب أكثر عمقا .

. . .

لذلك ينصح الدكتور يوسف عز الدين عيسى دارس الأدب بقراءة شىء من العلم ودارس العلم بالالمام بقسط من الأدب ، اذ انه من المؤمنين بوحدة المعرفة ، وبأن العلوم والآداب والفنون غير منفصلة عن بعضها البعض فى الحياة ، فهى أشبه بمجموعة من الكائنات الحية ، نباتات وحيوانات ، تعيش معا فى

بحيرة واحدة متعاونة متكاملة دون أن يدرك أى نبات أو أي حيوان منها أن العلماء يطلقون عليه اسما خاصا ويضعونه فى مملكة أو شعبة أو عائلة معينة ٠ ان التقسيم الى علم وأدب تقسيم مصطنع لا يقصد استحالة تلاقيهما ، بل المقصود به تسهيل الدراسة فى معاهد العلم واعداد أماكن لمن يرغب فى دراسة العلم وأماكن لمن يود دراسة الأدب فى أثناء عملية التعليم العام ٠ أما بالنسبة لتقسيم الدراسة عندنا فى مرحلة التعليم الثانوى الى علمى وأدبى ، فان يوسف عز الدين يوضح أنه اختفى فى عديد من الدول الغربية منذ زمن بعيد ٠

فى الولايات المتحدة مثلا يختار الطالب أو الطالبة فى الدراسة الثانوية عددا محدودا من المواد من بين مائتى مادة تغطى جميع النشاط الذهنى والمهنى التى من الممكن أن ينبغ فيها الانسان أو يتخذها مهنة ٠ فنجد من بينهما مثلا : البيولوجيا والرياضيات الى جانب المنطق ، والجدل ، والنقد السينمائى والمسرحى ، وهندسة السيارات ، والتاريخ والجغرافيا ،

واللغات ... الخ . ومن الممكن أن يختار الطالب أو الطالبة على سبيل المثال : علم النفس والرياضيات والجدل والتصوير الفوتوغرافى والنقد المسرحى والجغرافيا ، وعشرات من المجموعات الأخرى دون ارتباط بضرورة دراسة العلوم الأدبية معا والعملية معا ، اذ قد يهوى الطالب دراسة علم النفس والرياضيات والتاريخ ولا يكون لديه ميل لدراسة الجغرافيا والفلسفة . ونظام كهذا من شأنه أن يكتشف أقوى ما لدى الطالب من مواهب ، لا أضعف ما هو محروم منه من قدرات ؛ كما أن من شأنه الغاء الحاجز الذى يفصل العلم عن الأدب . والقضاء على تلك النظرة الخاطئة التى تعتبر الأدب شيئا غريبا عن العلم ، والعلم شيئا غريبا عن الأدب .

ولقد عانى الدكتور يوسف عز الدين فى بدء حياته من تلك الفكرة الخاطئة التى تنظر الى رجل العلم اذا كتب عملا أدبيا وكأنه ارتكب خطيئة لا تغتفر . فقد كان يكتب القصة أو الرواية أو التمثيلية الاذاعية ــ وبعض انتاجه كان يعتمد بطبيعة الأمر على الخيال العلمى ــ

لكن عندما تنشر أعماله أو تذاع كان يدعو الله ألا يكون أحد قد قرأها أو استمع اليها ! كانت فى أعمـاقه قوة لا يمكنه منعها تدفعه للكتابة وللتعبير عن أفكار تجيش فى صدره ويزدحم بها ذهنه ولا يرتاح الا عندما يكتبها، وكان فى الوقت نفسه يخشى من التعرض للوم أو تأنيب فى الوسط العلمى الذى يحيط به لاقترافـه جريـة التأليف الأدبى على حد قوله • ونشأ من هذا الصراع المرير فى أعماق نفسه شعور باليأس والتمزق ظل يعانى منهمـا فترة طويلة ، وكثـيرا ما صمم على التوقف عن الكتابة الأدبية ارضاء لمن حوله من رجال العلم ، ولكن تلك القوة الكامنة فى عقله ووجدانه كانت تتمرد على هذا التصميم فيعود للأدب •

ظل هذا الشعور المرير يجتاحه ويعربد فى ذهنـه الى أن سافر الى انجلترا للحصـول على الدكتوراه فى علم الحشرات • هنالك وجد أن العقلية عندنا تختلف تمام الاختلاف عن عقلية الغربيين • فقد كان المعمـل الذى أجرى فيه أبحاثه يضم عددا من المصريين والانجليز ، وعند اجتماعهم لتناول قهوة الصباح وتناول الشـاى

فى نحو الرابعة بعد الظهر ، فى أثناء هاتين الفترتين لم يحدث مطلقا أن تحدث شاب انجليزى عن موضـوع يتصل بالعلم • كانت الأحاديث تدور حول أشعار ملتون ومقارنتها بأشـعار بليك وكيتس وشيللى ووردزورث وكولردج ، وعن قصص هـ•ج• ويلز وفرجينيا وولف وجيمس جويس ولورانس ومسرحيـات شـكسبير وبرنارد شو وغيرهم • فكان الدكتور يوسف عز الدين يترجم لهم بعض معانى أشعار أبى العلاء المعرى ويبين لهم وجه الشبه بين حياته وحياة ملتون ، ويقوم بتعريفهم بأعمال بعض المؤلفين والشعراء المصريين فكانوا طوال هـذه الفترات يلزمون الصمت وكلهم شغف لمعرفـة المزيد • أما الطلبـة المصريون فكانوا يلزمون الصمت لسبب آخر ، اذ لو خرجوا عن دائرة تخصصهم الضيقة لوجدوا أنفسهم فى ظلام دامس لاعتقادهم الخـاطىء بأن من يعمل فى مجال العلم لا ينبغى له أن يهتم بالشعر أو الأدب •

وعلى الرغم من أستاذية الدكتور يوسف عز الدين فى البيولوجيا ، فانه يعد امتدادا للعالم المصرى الدكتور

على مصطفى مشرفة عندما دافع عن الأدب فى المنـاظرة التى عقدها مع الدكتور طه حسين ودافع فيها الأخير عن العلم . يقول يوسف عز الدين فى دفاعه عن الأدب :

« يمكننا أن نشبه صرح الحضـارة بمبنى مقام على أعمدة متساوية تمثل العلم والأدب والفن . فاذا اختل واحد من تلك الأعمدة انهار صرح الحضـارة . والدولة التى ينبع منها أدب ممتـاز لابد أن تتوقع أن ينبع منهـا علم وفن فى نفس المسـتوى . أما اذا أردنا المفاضلة بين العلم والأدب وتقرير أيهما يوضع فى المرتبة الأولى وأيهما يوضع فى المرتبة الثانية ، فاننى أعتقد أن الأدب ينبغى أن يأتى فى المرتبـة الأولى ، قبل العلم . فالعلم وسيلة ، أما الأدب فغاية . العلم مثلا ، قدم لنا جهاز التسجيل ، ولكن جهاز التسجيل لا قيمة له اذا لم توجد المـادة التى يسجلها . وهذه المـادة قد تكون أدبا أو فنا . والأدب والفن موجودان قبل اختراع جهاز التسجيل بمئات السنين » .

ولا يعنى الدكتور يوسف عز الدين بهذا الكلام

التقليل من قيمة العلم كوسيلة ضرورية لاقامة مجتمع متحضر ، فهو من أكثر المفكرين ادراكا لقيمة العلم وايمانا به ؛ ولكن لا ينبغي في غمرة حماسنا للعلم أن نقلل من شأن الأدب . ذلك أن الذي يريد تأكيده هو أن أي مجتمع بلغ ذروة العلم وقمة التكنولوجيا يصبح عديم الهدف الانساني الحقيقي اذا اكتظ بالآلات وشتى المخترعات وخلا من النواحي الجمالية التي لا تكتمل عناصر الحياة بدونها . فالانسان في حاجة ، مثلا ، الى الغذاء ليعيش ، ولكن ليس الهدف من الحياة أن نعيش لنتغذى .

ويعلن يوسف عز الدين استنكاره الشديد لبعض الصرخات المتشنجة التي تنادي بأن عهد الشعر والقصة قد ولى . ذلك أن الانسان لن يستغني عن الأدب والفن الا اذا تحول الى مخلوق آخر بشع كريه لا يمت للانسانية بأية صلة . ان ضجيج الآلات وأزيز الطائرات وهدير القطارات لن يطغى مطلقا على صوت أنشودة جميلة أو موسيقى عذبة أو قصة رائعة أو قصيدة رقيقة تشعرنا بآدميتنا . ولا ينكر يوسف عز الدين أن العلم

قدم لنا ومازال يقدم مزيدا من وســائل العلاج لاتاحة حيــاه أكثر طــولا وأقــل مرضــا ولـكن الأهــم ما سنفعله بأنفسنا فى هذه الفترة من الحياة التى يضيفها الطب لحياة الانسان • ان الطب وسيلة لاطالة الحيــاة وجعلها خالية من الأمراض ، لكن الغاية من ذلك هى الاستمتاع بهــذه الفترة من الحيــاة وادراك معناهــا والا أصبحت عديمة المعنى وعديمة الهدف •

١٠

مصطفى محمود

لعل الأعمال الأدبية التى كتبها الدكتور مصطفى محمود كانت تهدف أساسا الى البحث عن هذا المعنى وهذا الهدف . ففى رواية « الأفيون » يقول :

« هناك مليون شيء وشيء فى هذه الدنيا لا نعلمه .. ولكن جهلنا لا يمكن أن يكون عذرا لنمشى فى الشوارع نهذى ذلك الهذيان الملتاث .. لابد من عمل .. لابد من عمل .. لا يمكن أن تتوقف الدنيا لمجرد أن هناك أشياء نجهلها .. مثل هؤلاء المبروكين

لابد أن تتحدد اقامتهم فى تكايا حتى لا ينطلقوا هكذا يبلبلون العقول .. لابد من خطة لتنظيم هـذا الفيض من البركة قبل أن يغرقنا طوفانه » .

ويعلق الناقد جلال العشرى على هـذا الاتجاه العلمى فى فن الرواية فيقول فى كتابه « مصطفى محمود شاهد على عصره » :

« بكل صـدق ووضوح ، وبكل جرأة وشجاعة طرح مصطفى محمود فى روايته الثانية قضية من أخطر القضايا فى تاريخ الانسان ، وأشدها الحاحا فى العصر الحـاضر .. قضـية الصراع بين قوى المـادة وقوى الروح ، بين دائرة المعلوم ودائرة المجهول .. بين نتائج المعرفة العلمية ورؤى الكشف الصوفى . وانتهى الى أن ما نجهله لا ينبغى أن يلغى ما نعلمه ، وانه اذا كان هناك مجال للمعرفة الصـوفية فان المعرفة العلميـة هى سبيلنا الى العمل ، واذا كان العلم وحده لا يكفى فى الوصول الى اليقين ، فانه يكفى لكى تسير الحياة .. فالسماء داخل العالم وليست خارجه ، وكل ما هو غير

انسانى أو كل ما لا يضـاف الى الانسان ، فهو غير موجود على الأقل بالنسبة الى الانسان » .

ويوضح جلال العشرى الى أى مدى كان مصطفى محمود متأثرا بالمنهج العلمى فى تشكيله للرواية ، وفى تجسيده لاحســاس بطله من خلال معادلة موضــوعية كاملة ، بحيث أخذت الرواية شكل التصميم الهندسى ، وجاءت على هيئة مثلث ، قاعدته لوحة الجنس وتمثلها زوجتـه ، وأحد ضلعيه لوحة المـال ويمثلها أخوه ، والضلع الأخير هو لوحة العلم التى يمثلها ابنه . لكن جلال العشرى يؤكد أن مصطفى محمود وقع فى خطأين من جراء هذا التصميم الهندسى : خطـأ « اللاتجانس » وخطـأ « الاستاتيكية » . وكان « اللاتجـانس » بين طبيعة احساس البطل وما يعادل هـذا الاحســاس فى الواقع الخارجى . فقد حول التصميم الهندسى التجربة الشعورية الى شكل قياسى ، والانفعال الوجدانى الى معادلة رياضية . أما عن خطـأ « الاستاتيكية » فيقول جلال العشرى :

« ومن جراء هذا التصميم الهندسى أيضا وقوع

الكاتب فى خطأ « الاستاتيكية » أو اللاتفاعل بين قطبى الرواية ، فضلا عن اللاتفاعل بين أضلاع المثلث ، فالكاتب عندما لجأ الى التصميم الهندسى ، وتخيل اطار روايته على هيئة لوحة كبيرة ، عمد الى الألوان الصارخة والمساحات السيمترية ، فوضع بطله فى جهة ولونه باللون الأبيض ، ووضع المثلث فى الجهة المقابلة ولون أرضيته باللون الأسود ، ثم عاد فلون كل ضلع من أضلاعه بلون خاص .. فالبطل لونه أبيض فاقع لأنه الروح ، والمثلث أرضيته سوداء لأنه المادة ، وأضلاعه الثلاثة مختلفة الألوان لأن المادة تعبر عن نفسها اما فى الجنس أو فى المال أو فى العلم . وهكذا خفت حدة التفاعل الديناميكى بين أشخاص الرواية ، واقتربت من العرض الاستاتيكى لصور الأشخاص » .

لكن من المهم أن نلاحظ هنا أنه اذا كان مصطفى محمود أقام بناء روايته على المنظور العلمى ــ بصرف النظر عن سلبياته الفنية التى أوردها جلال العشرى ــ فان جلال العشرى نفسه استخدم فى نقده وتحليله اصطلاحات ومقاييس علمية ورياضية بحتة . فقد استخدم

التصميم الهندسى وطبقه على منهج مصطفى محمود ؛ ثم اتهم الرواية بالجنوح الى الاستاتيكية مما أدى الى خفوت حدة التفاعل الديناميكى بين أشخاص الرواية . وهذه كلها اصطلاحات لا تستخدم الا فى الرياضة والفيزياء ، مما يدل على أن الأدب والنقد قد انفتحا تماما على علوم العصر ووجدا فيها ثروة من المفاهيم العلمية التى توسع الأفق نحو تطلعات جديدة من الفكر الانسانى المتجدد .

والعمل هو المحك الحقيقى لكل معرفة سواء كانت علمية أو صوفية من هنا كانت مقارنة جلال العشرى بين رواية مصطفى محمود « الأفيون » ورواية أولدس هكسلى « الجزيرة » ، ذلك لأنهما يؤمنان بأن المادية المجردة لا تقل سوءا عن المثالية المجردة اذا كانت لا تؤدى الى عمل ، فالمادية مهما تكن محسوسة لا ترتفع بنا كثيرا الا اذا كنا على وعى كامل بما نفعل . لذلك يرى العشرى أنه اذا كانت « الأفيون » بمثابة المرحلة التى تسمى بأدب « الموضوع » أو أدب « الواقع الذهنى » فان رواية « العنكبوت »

بحق هى التعبير عما يسمى بالأدب العلمى أو ما يعبر عن أدب « الواقع العلمى » كما يعتقد العشرى أنه من الطبيعى أن تجىء « العنكبوت » بعد « الأفيون » رواية علمية خالصة تتخذ من العلم موضوعا لها ، بل وشكلا كذلك بحيث تندرج تحت ذلك اللون من القصص الذى يعرف بالقصص العلمى ، والذى خلا منه أدبنا الحديث أو كاد ، لدرجة أنه يعدها رائدة لهذا اللون من القصص فى التأليف الروائى العربى المعاصر .

وترجع أصالة مصطفى محمود فى مجال الأدب العلمى الى تمكنه من حل احدى المعادلات الصعبة فى حياتنا الفكرية والثقافية ، معادلة أحد طرفيها ثقافة علمية صحيحة ، والطرف الآخر موهبة أدبية صادقة ، مع قدرة على مزج هذين الطرفين فى وحدة عضوية واحدة عبر وريد الكلمة وشريان العبارة وخلايا الصور الحية على حد قول جلال العشرى الذى يؤمن بأن مصطفى محمود بحكم دراسته الطبية وبحكم موهبته الأدبية وبحكم أسلوبه التأملى قادر على مزج

هذين العنصرين مزجا فنيا جديدا ، بل ان العشرى يرى فى رواية « العنكبوت » لمصطفى محمود :

« استجابة مباشرة أو غير مباشرة لتلك الدعوة التى دعا اليها العالم الروائى المعاصر « س.ب. سنو » فى محاضرته الشهيرة عن « الثقافتان والثورة العلمية »، التى ذهب فيهما الى أن هناك هوة سحيقة بين العلوم والفنون ، بحيث اننا لا نكاد نجد من بين أدباء اليوم من يعرف شيئا عن قانون الجاذبيـة أو نظرية النسبية أو مبدأ اللاتعين أو القانون الثانى للديناميكا الحرارية، الأمر الذى يجعل منه انسانا يعيش فى غير عصره ، اذا كان عصره هو عصر العلم . وعلى ذلك فلابد للأدباء فى رأى « س.ب. سنو » أن يكونوا أكثر علمية ، كما أنه لابد للعلماء أيضا أن يكونوا أكثر تأدبا ، لأنه على حد تعبيره « ليس بالعلم وحده يحيا الانسان ، كما أنه ليس بالفن وحده يحيا الانسان » .

لكن جلال العشرى ينفى أن مصطفى محمود فى رواية « العنكبوت » يؤمن بالعلم ذلك الايمان المطلق الذى يضعه فى مأزق رفضـه أو قبوله من حيث تأثيره

على الحياة الانسانية . هنا يذكر جلال العشرى المـأزق الذى وضع فيه العالم الروائى الكبير أولدس هكسلى عندما ذهب فى روايته الباكرة « العالم الطريف » الى رسم صورة خيالية لعالم جديد يواكب العلم فى سرعة تقدمه وغرابة تطوره ، فاذا بنا داخل عالم الهه العلم ورسله العلماء وملائكته أنابيب الاختبار ، وكل شىء فى هذا العالم يوشك أن يتدخل فيه العلم بحيث يفقد الانسان انسانيته . فى ذلك « العالم الطريف » استطاع العلماء انجاب الأطفال عن طريق بعض المواد الكيماوية، وتحكموا فى صفاتهم من حيث الأنوثة والذكورة ، ومن حيث العبقرية والغباء ، بل من حيث الخير والشر والقبح والجمال بنــاء على نسب كيماوية معينة . الأمر الذى جعل أولدس هكســلى يتخذ من العــلم ذلك الموقف المتشائم ، كما جعله يخشى منه على حياة الانسان وعلى مستقبل البشر فراح ينادى بالعودة الى العاطفة الانسانية السليمة حيث الطهارة والبكارة والفطرة . من هنا كانت

رواية هكسلى الأخيرة « الجزيرة » التى صور فيهـا عالمـا آخر فى احدى جزر المحيط الهادى ، تحولت فيه الوسائل التكنولوجية التىجعلت من « العالم الطريف » جحيما ، الى وسائل جعلت من « الجزيرة » نعيما مع اختلاف الهدف من استخدامها .

أما مصطفى محمـود فيرى جـلال العشرى أنه لا يؤمن بالعـلم ذلك الايمـان المطلق الذى آمن به هكسلى فوضع نفسه فى مأزق رفضه مرة وقبوله مرة أخرى . فموقفه من العلم ليس موقف الفيلسوف الذى يضع مقدمات ويستخلص منها نتائج ، وانما هو موقف الفنان الذى تدفعه الدهشة ويحدوه الانبهار فيأخذ من العلم أسعد ما فيه بهدف البحث عن الحقيقة ، أكثر من أن يكون ذلك بقصـد اصلاح المجتمع .

ويتهم جلال العشرى بعض النقاد الصحفيين بفقدان الوعى العـلمى عندما قالوا بأن مصطفى محمـود فى « العنكبوت » يلغى التاريخ الاجتماعى للانسان ، كما

يلغى التاريخ البيولوجى ، ويلغى جميع العلوم والفنون، ويلقى بجميـــع الحقـائق فى سـلة المهمـــلات . لذلك يتنـاول العشرى النظريـة السببية والنظريـة النسبية بالتحليل فى مجال الرواية فيقول :

« ان ادراك الزمن لا يعنى الغاء التاريخ ، لأن ربط الزمن بالتاريخ يرجـع الى النظرية السببية التى سيطرت على العقول طويـلا ، والتى تنظر الى الزمن على أنه ذو اتجاه واحد لا يقبل الاعادة أبدا ، فهو خط مستقيم انتهى الينا من المـاضى ، ويبدأ من الحـاضر بالنسبة لنا ، ويستمر فى خط مستقيم نحو المستقبل . وترجع هذه الفكرة عن الزمان الى قصور وعى الانسان بالعالم المحيط به ، وسرعة الضوء بحيث لا يدرك شيئا الا فى نطاق التتابع الذى يفرضه عليه غموض احساس سابق ، لحلول احساس جديد محله فى بؤرة الشعور . وهذا على العكس تماما من النظرية النسبية عن الزمان، التى ترى أنه شعور الانسان ووعيه بتوالى الأحداث فى محيطه المـادى المحدود ، بحيث لو توسع قليلا فى هذا

المحيط ، أو لو أن الضوء خفف من سرعته لما كان للتتابع الزمنى بين الأشياء محل فى وعى الانسان ، وفهمه للأشياء » .

وفى رواية مصطفى محمود التالية « الخروج من التابوت » نجد مزيجا فنيا بين نظرية « الوثبة الحية » عند برجسون ، ونظرية النسبية عند آينشتاين . فالحياة فى الرواية تبدو تيارا ينتقل من بذرة الى أخرى عن طريق الكائن الحى ، بحيث يصبح الكائن أشبه بالغدة أو البرعم الذى يعمل على تفتح البذرة القديمة حتى تنبثق منها بذرة جديدة . وهكذا يستمر التقدم والتطور عبر تعاقب الأجناس أى أن هناك طاقة حيوية قوامها النشاط المستمر من أجل خلق صورة جديدة من صور الحياة . أما الدور الذى تلعبه نظرية النسبية فى الرواية فيتبلور فى مفهوم المادة التى لم تعد فى ضوء العلم الحديث صخرة صماء ، بل تحولت الى ذرات ، وما الذرات سوى مجموعة من الالكترونات والبروتونات ، وما الالكترونات والبروتونات فى

النهاية الا شحنات كهربائية : أى طاقة أو نشاط موجى منطلق فى غير وسط ، لا يؤثر فى غيره ولا يتأثر بغيره ، لأنه « غيره » غير موجود . لذلك يقول جلال العشرى فى كتابه « مصطفى محمود شاهد على عصره » :

« بسقوط التصور الكلاسيكى للمادة يسقط التصور الكلاسيكى للزمان والمكان معا ، فالفكرة القديمة عن المادة كانت هى المصدر الذى تفرعت عنه الفكرتان الأخريان ، فليس المكان الا مكان المادة ، وليس الزمان الا تتابع المادة فى وعى الانسان ، الذى لا يستطيع أن يدرك كل شىء دفعة واحدة ، وانما يحتاج الى التقديم والتأخير .

وبذلك تسقط النظرية السببية بدعائمها الثلاث المادة والمكان والزمان ، لتحل محلها النظرية النسبية التى ترى أن هناك بعدا رابعا غير مرئى للمادة هو الزمن نعرفه بالحدس والتخمين ، وتقصر حواسنا المباشرة عن ادراكه . وعلى ذلك لا ينبغى أن نعجب اذا قال لنا علماء الروح ان الجسم الانسانى له مجال

مغناطيسى حوله ، وأن الروح تعيش فى العـالم الرباعى الأبعاد وتدركه • وأنها ذات طبيعة موجية تمكنها من اختراق الحجب » •

ان مصطفى محمود بذلك يسلح الانسان المعاصر لكى يواجه مستحيل روح العصر ، العلاء على الصواريخ والأقمار ومحطات الفضاء ، وكل ما من شأنه أن يصنع شبكة العلم الحديث ، العـلاء عليها بالرؤية المستقبلية للحياة ، التى لا تنطلق الى الخارج الا بادئة من الداخل، ولا تحقق النصر الخـارجى الا بعد أن تحقق الوجود الداخلى الحقيقى للانسان •

١١

نهـاد شريف

نفس الاتجـاه نجده فى أعمـال الروائى العلمى نهاد شريف الذى يؤمن بأن العلم سلاح ذو حدين ، حد مفيد وحد ضار • ومهمة الأديب كشف النقاب عن حدى السلاح • لذلك فهو يهتم بالكشـف عن الحد الضار للتقدم العلمى والتفوق التكنولوجى ، مما جعل اهتماماته عالميـة أكثر منها محليـة • بل انه ينظر الى العالم كوحدة متماسكة ، فالبشر يشتركون جميعا فى سكنى كوكب واحد ويضمهم مصير واحد • وهـذا المفهوم يتجسـد فى أعماله الروائيـة والقصصية مثل

« قاهر الزمن » ، و « رقم ٤ يأمركم » ، و « سكان العالم الثانى » ، و « الماسات الزيتونية » ، و « الذى تحدى الاعصار » . فى هذه الأعمال يلقى نهاد شريف الأضواء الفنية والعلمية والانسانية على قضايا تكدس السلاح فى ترسانات الدول ، وخطر قيام حرب نووية ، واجراء تجارب تفجير القنابل الذرية وأثر ذلك على الانسان والبيئة بل وأيضا على جيراننا من سكان الكواكب الأخرى ، والتفاوت المخيف فى الثروات بين الدول الغنية والدول الفقيرة ، وتلوث البيئة وتغير معالمها ، وتضخم المدن والانفجار السكانى ... الخ .

لكن نهاد شريف لا ينظر الى الانجازات العلمية وتأثيراتها على البشرية نظرة تشاؤم أو يأس ، وانما غاية ما يهدف اليه هو التحذير من أخطار يرى أنها واقعة لا محالة لو تمادى الانسان فى سوء استغلاله للعلم . ومهما تطرف فى بلورة الحد الضار لسلاح العلم عبر كتاباته لدرجة الصدمة والقتامة ، فانه يحرص على توليد شعاع من أمل يعبر عن يقينه من انتصار الانسان على نفسه فى النهاية وصولا الى عالم أفضل .

ويرى نهاد شريف أن للعلم دورا خطيرا فى الأدب كما هو فى الحياة • فاذا كان السرد القصصى قديما لا يخرج عن اطار الأساطير أو الأحلام التى يصول فيها الخيال ويجول ، فاننا نجد فى أدب الخيال العلمى قيودا يفرضها العلم وانجازاته ، ومفاهيم ونظريات وبدايات يتحرك من خلالها السرد القصصى وينطلق • وقد تغيرت الأشكال والأدوات بطبيعة الحال • فبدلا من الجنى أو العفريت أو البساط السحرى أو البلورة المسحورة ، نجد الصاروخ والقمر الصناعى والسينما والتليفزيون • ونحن لم نر الجنى أو البلورة المسحورة صراحة وانما رأيناها بمخيلتنا•ولكننا نشاهد الصاروخ فى المتحف ، ونتابع انطلاقه فى السينما فنتأكد من صحة وجوده ، ونعى تماما أهمية وكيفية صنعه ، كما أن التليفزيون يدخل كل بيت • لهذا كله تأثير مباشر على الأدب • فقد تعقدت مهمة الأديب واختلفت نوعية تفكيره فأصبح يبحث عن منافذ جديدة لشطحات خياله فى ظل وجود حقائق وبديهيات ملموسة مؤكدة بفضل التقدم العلمى الحادث بالفعل •

ويؤكد نهاد شريف أن الرواية بصفة عامة والرواية العلمية بصفة خاصة ـ حتى الفانتازيا المغرقة فى الخيال الجامح المتحرر من قيود الشكل التقليدية ـ لابد أن تقوم على أساس ولو طفيف من علم : بمعنى أن تكون النواة أو الركيزة الأولى علما ، ثم يأتى الخيال ليلعب دوره فى اكمال الصورة الفنية التى ينشدها الروائى . ونسبة الخيال أو كميته هى التى تحدد نوعية السرد القصصى . وفى تقدير نهاد شريف أن الرواية والقصة العلمية لابد أن تكون مرتبطة بالواقع وأن تأخذ منه ولو بقدر . فالخيال نفسه مقيد بالانطلاق من بدايات واقعية وليس من عدم . والفنان هنا مرتبط بالواقع أصلا ، لأنه هو نفسه جزء منه ، وخياله العلمى ينطلق من نقطة الصفر ، وهى نقطة لابد أن يكون عرفها أو خبرها من قبل . أما الفارق أو الاختلاف ففى الذى يتم بعد الانطلاق حيث ينشط خيال الفنان وتتفجر ابداعاته وشطحاته ، وتحلق به بعيدا عن الواقع الذى أقلع منه ، والى بدايات وتصورات لم تكن معروفة من قبل .

ولمـا كانت حضارتنا فى هذا العصر حضارة علمية قبل كل شىء ، وقد قفز الانسان عبرها قفزات هائلة فى مجالات التكنولوجيا لدرجة أن ما تحقق من تقدم خلال ربع القرن الأخير مثلا أصبح من الضخامة بحيث يتجاوز الالمـام والحصر ، وربما يتجاوز الاستيعاب أساسا ، كما أن الفنان والأديب بالذات لا يمكنه تجاهله ، فان نهاد شريف ــ من خلال أعماله ــ يؤكد بأسلوب فنى أن البشرية أصبحت تملك بحق الأدوات والوسـائل العلمية اللازمة لتغيير العالم . وخـلال مراحل التغيير هذه وتحت ظلال أفكار جديدة كل الجدة تكمن أجمل الرؤى وأروعها . وهكذا فأدب الخيال العلمى يترجم المكتشفات والمخترعات والتطورات التكنولوجية التى على وشك الظهور أو التى لم تظهر بعد الى قضـايا انسانية ومغامرات درامية وايقاعات فلسفية .

ومن أجـل تحديد أكثر واقعيـة لدور العلم فى الأدب فان نهاد شريف يوضح أن القصة العلمية انما هى نتاج مباشر للتقدم الحضـارى الحادث فعـلا بتقدم العلوم وازدهار التكنولوجيا . فلابد للقصة العلميـة

من ارتباطها العضوى بالواقع العلمى ، ومن أخذها منه ولو بقدر ، فاذا كان البلد متقدما علميا كان أدباؤه على دراية ومستوى علمى ملائم ، ومن ثم فان احتمالات الكتابة فى المجال العلمى تكون أوسع وأشمل وأدق • ففى رأى نهاد شريف أن الدول كالبشر تكون أكثر طموحا وأعمق فى نظراتها المستقبلية كلما ازداد تمكنها العلمى والحضارى •

وبالنسبة لعلاقة المستقبل البشرى بالخيال العلمى كتب حسنين فهمى مقالين بجريدة الأخبار : الأول بتاريخ ١٥ يناير ١٩٧٩ تحت عنوان « المستقبل والخيال العلمى » ، والثانى بتاريخ ٢٢ يناير ١٩٧٩ تحت عنوان « التقدم والعبقرية والخيال » • وتدور فكرة المقالين حول حتمية التقدم الانسانى وهى فكرة تتطلب تجميع وتحليل مكونات الماضى ثم التنبؤ بتوقعات المستقبل • والتنبؤ بالمستقبل ليس بالعمل السهل • وليس مرد ذلك فقط الى أنه يتطلب حدا عاليا من العلم والتحليل ، وانما يقتضى أيضا توافر الموهبة والجسارة العلمية • فكم أخطأ علماء عظام توافر لهم أكبر حد من الالمام

بمعطيات العلم الحديث . ويستشهد حسين فهمى على ذلك بأناتول فرانس الأديب الفرنسى الكبير عندما قال ان العلم خال من الخطأ والعيب ولكن العلماء هم الذين يضلون على الدوام . ويستطرد حسين فهمى فيقول :

« وهل يوجد أعظم من آينشتين الذى كان يقول فى عام ١٩٣٩ انه لا يعتقد فى امكانية استخدام الطاقة الذرية ! والعجيب أن ما فشل آينشتين فى توقعه والتنبؤ به نجح فيه كاتب متواضع لقصص الخيال العلمى . فقد قال روبرت هيفلين فى عام ١٩٤١ ان الأمريكيين سوف ينجحون فى انتاج قنبلة من اليورانيوم ٢٣٥ ، وانهم سيلقونها على مدينة رئيسية من مدن العدو قبل نهاية الحرب . ووصف الكاتب بدقة هذا القصف الذرى . وبعد أربع سنوات ألقيت قنبلتا هيروشيما وناجازاكى ، ووقعت المأساة الذرية قبيل نهاية الحرب فى اليابان ، وتحققت نبوءة هيفلين !! وفاز الكاتب المتواضع لقصص الخيال العلمى على العالم العظيم المتمكن ! ولكن المهم أن الكاتب الأمريكى الذى شق

حجب المستقبل أثار شكوك أجهزة المخابرات الأمريكية والبريطانية ! فقد كانت الحكومتان الأمريكية والبريطانية تجريان بالفعل أبحاثا سرية لانتاج هذه القنبلة الذرية واستخدامها . وتعرض الكاتب للاستجواب . ولكن ظهر أن خياله العلمى كان سباقا ، أو على الأقل مواكبا لخفايا التقدم العلمى » .

١٢

حسين فهمى

يتعرض حسين فهمى بالتحليل للدور الريادى الذى لعبه كل من هـ٠ج٠ ويلز وجول فيرن فى مجالات قصص الخيال العلمى لدرجة أنهما كانا أبعد نظرا فى رؤيتهم لمستقبل التقدم العلمى من هؤلاء العلماء الذين أسهموا فى هذا التقدم ، فمثلا قدم فيرن أكثر من مائة نبوءة علمية تحققت جميعا ، عدا عشر منها تبين إن أساسها العلمى غير سليم ، أو أنها مستحيلة التصنيع ، حين قدم كاتب علمى آخر يدعى فويلنر ٨٦ نبوءة علمية تحققت منها ٧٥ نبوءة ٠

ثم يبين حسين فهمى كيف أصبح أدب الخيال العلمى يحتل مكانة هامة فى الأدب الحديث ، وكيف انتشر بعد الحرب العالمية الثانية بصفة خاصة لدرجة أن ملايين النسخ من قصص التنبؤ بمستقبل البشرية توزع فى مختلف أنحاء العالم . ولاشك أن هذا كان نتيجة مباشرة للثورة العلمية والتكنولوجية التى يشهدها عالمنا والتى تتمثل فى التطبيقات الذرية ، والعقول الالكترونية ، والادارة الذاتية ، وعصر الصواريخ عابرة القارات ، وعصر الفضاء ، وعصر اكتشاف وتطوير جينات الوراثة ... الخ . وهذه كلها تنبأ بها كتاب قصص الخيال العلمى ، كما أن مثل هذا العصر لابد أن يعزز العجب العجاب من رؤى الخيال العلمى للمستقبل . أى أن العلاقة عضوية بين الانجازات العلمية الواقعة وقصص الخيال العلمى ، بحيث يحفز كل منهما الآخر الى المزيد من الابداع سواء على المستوى العلمى أو المستوى الأدبى .

ويؤكد حسين فهمى أنه لاجدال فى أننا نعيش عصرا لا يستطيع فيه الأديب ، أى أديب الا أن يتزود بالثقافة

العلمية ، والفهم العلمى للأشياء • فالعلم فى عصر العلم ضرورة موضوعية للفهم ، قبل التنبؤ ، ذلك لأن الواقع الانسانى والاقتصادى والاجتماعى والعلمى المعـاصر يفرض على الكاتب أن يوسـع آفاق ثقافتـه • وربما كان كتاب الخيال العلمى أكثر الكتاب حاجة الى متابعة منجزات العلم ، وملاحقة انتصارات التكنولوجيا • بل اننا لنجـد أن أكبر وأشـهر كتاب الخيـال العلمى ، والمتنبئين بمنجزات العلم فى المستقبل هم أنفسهم من العلماء مثل ويلز وفيرن وبلاييف وغيرهم من المتابعين لأدق الأنباء والتفاصيل عن مسـيرة التقدم والبحث العلمى • وهناك مبدأ أكده جول فيرن يتمثل فى أن كل ما يستطيع الانسان أن يتخيله ، فان الآخرين سـوف يكونون قادرين على تحقيقه • والواقع أن الخيـال والتصور ليسا مجرد لهو عقلى ، أو سرحة مع المجهول ، أو شطحات فكرية ، أو أحلاما فى غد جميل أو مرغوب فيه • انما الخيال والتصور هما الاحساس بالحقيقة ، والقدرة على الرؤية الصحيحة للمستقبل ، انطلاقا من فهم عميق للماضى والحاضر •

١٣

يوسف الشارونى

اذا كان كتاب الخيـــال العلمى يملكون القدرة على التنبؤ الدقيق بانجازات العلم فى المستقبل ، فذلك لأن انجازات العلم فى الحـــاضر قد أثرت بالفعل على نظرتهم الى الطريق الذى تشقه الانسانية • بل كان كل انجاز علمى وتكنولوجى يؤثر على الشكل الفنى الذى تتخذه الأعمال الأدبية وخاصـــة اذا كان هذا الانجـــاز يؤثر بأسلوب مباشر على الوسيلة التى تقوم بتوصيل العمل الأدبى الى الجمهور • فمثلا أدى ظهور المطبعة الى انزواء القصص الفولكلورى والملاحم الشعبية التى

كتبها مؤلفون مجهولون لكى تلقى على أسماع الناس فى جلساتهم وسهراتهم شفاهة . فى هذا يقول يوسف الشارونى فى كتابه « القصة والمجتمع » :

« ولئن أدى ظهور المطبعة الى انزواء هذه الآثار فوق رفوف المكتبـات لتكون مرجعا لمؤرخى الأدب أو لمن يريدون أن يستلهموا منها أدبا يقدمونه بطريقـة معاصرة ، فان المطبعة من ناحية أخرى أتاحت الفرصة لظهور هـذا الأدب الذى ينشئه أفراد معلومون ، وفى مقدمته فن القصة بشكلها الحديث قصيرها وطويلها . وعلى يد هؤلاء الأفراد المعلومين تخلصت القصـة شيئا فشيئا من هذه البدائية الفنية : فهى مثلا فى الوقت الذى تخففت فيه من المبالغات الفانتازية ... كى تصبح أكثر اقترابا من الواقع ــ بعدت عن الواقع فلم تعد قريبـة من الخبر أو التاريخ ، وتركت للصحافة تلك المهمة ، فالصحافة تنقل ما وقع من حوادث أو تروى أخبـار السياسة التى تصنع التاريخ بعد أن تحذف وتضيف ما يؤدى الى اثارة القراء وجذب الانتباه ، على حين بحث الفن القصصى عن ميادين أخرى » .

ونتج عن ذلك أن ظهر أدب القصة النفسية والمونولوج الداخلى والتأملات المتأنية والشطحات العاطفية ، وأصبح كثير مما يكتب من قصص لا يمكن تلخيصه لسامع فى أكثر من كلمات قلائل ، لأنه مرتبط بكلماته المكتوبة أكثر بكثير مما هو مرتبط بما يتبقى من كلمات تروى • أما البطل فقد أصبح الشخص العادى فى حضارتنا أو أفراد الطبقة الوسطى على وجه الخصوص ، بعد أن كان الأمراء والملوك والسلاطين والأبطال الأسطوريون هم الشخصيات الرئيسية فى القصص والملاحم الشعبية التى يرويها الرواة على مسامع الحاضرين • كذلك لم يعد الكتاب يلتزمون الترتيب الزمنى للأحداث كما كان فى الماضى ، بل أصبح هناك ما يعرف باسم الفلاش باك •

ويتتبع يوسف الشارونى الانجازات التكنولوجية التى أثرت على التأليف الأدبى بعد اختراع الطباعة فيقول :

« ثم حدث أهم تطور ثان فى تاريخ البشرية بالنسبة للأدب بعد اختراع الطباعة ، وهو اختراع

الاذاعة فالسينما فالتليفزيون ، وأصبحت هذه الأجهزة هى الوسيلة الرئيسية للجماهير العريضة للحصول على المتعة الفنية ولا سيما فى بلاد مثل بلادنا ترتفع فيها نسبة الأمية • وأخذت صلة الأديب بجمهوره تصبح شيئا فشيئا عن طريق غير مباشر هو تلك الوسائل الوسيطة • وواضح أن هذه الوسائل تقدم أعمالها الفنية على أساس جماعى • وهو شبيه ـ وان كان بطريقة مختلفة ـ بما كان يحدث للعمل القصصى فيما قبل عصر انتشار الطباعة حيث كان كل راو يدخل من حصيلة عصره ومفاهيمه على العمل القصصى الذى يحفظه عن السلف ويرويه لجمهور مستمعيه ما يجعله عملا معاصرا يجذب الانتباه • ان أمرا مماثلا يحدث الآن بالنسبة لكل عمل قصصى يعرض عن طريق هذه الوسائل الثلاث : ذلك أن كاتب السيناريو يحذف ويضيف الى القصة بما يتفق مع الاذاعة المسموعة أو المرئية ، كذلك يتدخل المخرج بما يوفق بين رؤيته الفنية وما يتخيل أنه يرضى أذواق الجماهير ، حتى الممثل فان أداءه يضفى على ما أنجزه تضافر كاتب السيناريو

والمخرج والمصــور ومصمم الديكور ومصمم الأزياء ... الخ • يضفى طابعه الخــاص ، حتى ان العمــل السينمائى أو التليفزيونى الواحد يختلف اذا اختلف المخرج أو الممثل • ومعنى هــذا أن القصاص أصبح فردا فى مجموعة ، حقا انه لايزال يكتب القصة منفردا ، وقد يقرؤها الخاصــة كمــا كتبهــا ، وهم فى الأغلب المجموعة التى تريد أن تتعلم منه لكى يصبح أفرادهــا قصصــيين فى المستقبل مثله ، فهو يكتب اذن مبــاشرة لجمهور خاص محدود اذا قيس بالجماهير العريضة التى لن تتذوقه كما كتب عمله القصصى مباشرة ، لكنهــا ستتعرف عليه من خلال هــذه الوسائل الجمــاهيرية الجديدة بعد أن حذف من عمله الأصلى ، وأضيف اليه ما يتفق مع تفسير المجموعة التى تناولت عمله ومدى عبقريتها وبما يتفق مع تحويل الكلمــة المقروءة الى كلمة مسموعة أو مرئية » •

ويوضــح يوســف الشــارونى أن الوســيلة التكنولوجيــة التى تقوم بتوصيل العمــل الأدبى الى الجمهور لابد أن تحدث اختــلافا بين العمــل الأدبى

المقروء والعمل الأدبى المصور أو المسموع • وترتبط نوعية هذا الاختـلاف بنوعية الوسيلة التكنولوجيـة ذاتهـا • فمثـلا نجـد أن الوصف والسرد عنصران ضروريان فى العمـل الأدبى المقروء على حين ينعدمان تماما بل يستحيـلان فى العمـل المرئى أو المـذاع ، لأننـا ــ كما يحـدث فى الحـلم ــ لا نرى أمامنـا (أو لا نسمع) الا أشياء وأحداثا وأشخاصـا ، ومن تصرفات هؤلاء الأشخاص وتطور الأحـداث نستنتج نحن المشاهدين أو المستمعين طبائعهم وخبايا نفوسـهم وسيرهم • فالحركة هنا هى الأساس • وذلك أشبه ــ مرة أخرى ــ بالقصة المروية قبل عصر الطباعة عندما كان الحدس هو أساسها •

ولم تكن هذه هى الاختلافات الوحيدة التى طرأت على عمليـة توصـيل العمل الأدبى الى الجمهور عبر وسائل التكنولوجيا الحديثة ، بل هناك نتيجة أخرى تؤثر على الدور الذى يلعبه خيال المتذوق فى اسـتيعاب هذه الأعمال الأدبية •

يقول يوسف الشاروني :

« ونتيجة أخرى تترتب على توصيل الأعمال القصصية الى الجمهور عن طريق هذه الوسائل الجديدة ولا سيما المرئية منها أى السينما والتليفزيون ، ذلك هو الحد من خيال القارىء لأن الكلمة المطبوعة عندما تصف شخصا أو مكانا أو حدثا فانها تترك للقارىء حرية تخيل هذا الشخص أو المكان أو الحدث وتجسيدها بصريا وأحيانا سمعيا ولمسيا وشميا بعد أن يستدعى خبراته الخاصة وذكرياته مما يجعل الصورة النهائية تختلف من شخص الى آخر بقدر ما تختلف خبرات الأفراد وذكرياتهم • أما فى الصورة المرئية فان المخرج يقوم بدلا عنا بهذا التخيل ويجسد لنا رؤيته عن طريق توجيهاته للممثل والمصور ومصمم الديكور والأزياء ••• فهؤلاء كلماته التى تتكون منها لغته المرئية • وبذلك فهو يحد من ملكة تخيلنا » •

١٤

فاروق الباز

اذا كان العلم ينبع أولا من خيال الانسان ، فان الوسائل التكنولوجية التى يبتكرها العلم تحاول فرض وصايتها على هذا الخيال ، ولذلك يسعى الخيال الانسانى دائما الى المزيد من الاكتشافات العلمية التى تخترع بدورها الجديد من الوسائل التكنولوجية التى يمكن أن تكون لها رحابة الخيال الانسانى من هنا كان اعتزاز العلماء دائما بقدرتهم على التخيل ، تلك القدرة التى تحيل الخيال الى حقيقة .

يقول الدكتور فاروق الباز فى حديث له بجريدة الأهرام فى عدد ١٠ يناير ١٩٧٩ :

« أستطيع أن أقول ان الأعمال العلمية والاكتشافات الجديدة بدأت طبعا خيالات فى أذهان أصحابها ، وهذا مهم للغاية . فالخيال من أهم عناصر الحياة ومن أهم عناصر الفكر عند الانسان ، وأنا أعترف أن الفن سبق العلم فى ذلك بمراحل كثيرة لأن الفن أقرب الى فكر الانسان وأكثر راحة من العلم . ان الفن يعتمد أساسا على مشاعر الفرد واحساساته ، وهذه المشاعر والاحساسات تزيد من خيال الانسان . وأنا أعتقد أن العلماء الناجحين هم الذين يتمتعون بخيال خصب ، لأن العالم المحدود الخيال سوف يكون متدربا على شىء معين لا يستطيع الخروج منه أو تطويره أو ابداع شىء جديد . فالفن سبق العلم فى الابداع ، ولذلك فهو مهم للغاية حتى فى نمو العلم ، فاذا نظرنا الى تاريخ الانسان على الأرض نجد أن كل الحضارات العلمية فى كل مكان من العالم نمت وترعرعت بعد ازدهار الفن . فالعلم لا يستطيع أن يزدهر

بنفسه فى أى مجتمع ولكن يجب أن تسبقه النهضة الفنية وتمهد له . فمثلا حضارة مصر العلمية القديمة كان بجانبها بل سبقتها النهضة الفنية من نحت ورسم وموسيقى . وكذلك الحضارة العلمية الاسلامية سبقتها نهضة فى الأدب العربى والفن . حتى فى عهدنا الحديث لم تزدهر المدنية والتقدم العلمى الا بعد أن تقدمت الفنون والآداب والموسيقى . فدائما النهضة العلمية تسبقها نهضة فنية فى أى مكان فى العالم » .

لذلك فمن الطبيعى أن يهوى عالم الفضاء المصرى فاروق الباز الفنون والآداب وان كان لم يدرسها دراسة منتظمة . فعلى الرغم من انشغاله فى برامج الفضاء على أعلى المستويات العلمية والتكنولوجية العالمية ، فانه يعايش الفن ويستمتع بأعماله المتنوعة . والقراءة عنده ليست قاصرة على الكتب العلمية المتخصصة بل يرى أنها لابد أن تشمل كل فروع المعرفة، لأن القراءة الشاملة والمتنوعة هى الأداة الوحيدة لتوسيع أفق الانسان وتحريك خياله . من هنا كان نهم فاروق الباز فى الاطلاع على كتب الأدب والعلوم الانسانية

والفنون وخاصة فى العصور القديمة . وكان سعيدا جدا عندما أدرك حقيقة كان يجهلها ، فقد اتضح له من خلال قراءاته فى الفنون الاغريقية والهندية القديمة أن هناك علاقة وطيدة تربط هذه الفنون ، اذ ان الفن الهندى القديم تأثر بالفن الاغريقى كما أثر فيه بدوره . أما هؤلاء القدماء الذين صنعوا الحضارات القديمة ، فانهم لم ينقلوا العلوم أو الآداب أو الفنون كما هى الى بلادهم بل تأثروا بها وقاموا بتطويرها وتطويعها لكى تتعايش معهم بما يلائم البيئة التى يعيشون فيها .

١٥

اميــل توفيــق

والخيال الانســانى بصفته قوة خلاقة دافعــة للابتكار والابداع عبر التاريخ البشرى ، يرفض النقل المباشر أو التقليد أو المحاكاة أو التكرار ، وان كان لا يرفض التأثر والاستيعاب والهضم ثم افراز الجديد . وفى مقال فى جريدة الأهرام عدد ١٤ يناير ١٩٧٧ تحت عنوان « الصلة بين العلم والأدب » كتب اميل توفيق تحليلا لنظرة الفيلسوف الانجليزى هافلوك اليس تجاه موضوع الصــلة بين العلم والفن والفلسفة فى كتابه « رقصات الحياة » الذى تعرض فيه لبعض الذين آمنوا

بوحـــدة المعرفـــة الانسانية ، وعرف عنهم استيعابهم لخاصية الخيال الذى جعل حبهم للبحث ـ فى أى مجال من مجـالات المعرفـــة ـ يرقى الى مســتوى الحب والعبادة .

من هؤلاء الفيلسوف هانز فايهنجر الذى يعتبره هافلوك اليس مفكرا عظيما فى نظرته الشاملة للابداع وفى تحليله لطبيعـــة التفكير . يفرق فايهنجر فى نمو الفكر بين ثلاثة مظاهر فكرية وهى : الخيال أو الصورة الخيالية والفرض النظرى ، والفكرة الجامدة .

فالفكرة الجامدة يعتبرها المعتنق لها حقا مطلقـا لا يقبل النقاش أو الجــدل ، أما الفرض النظرى فهو الحق المحتمل أو الحقيقـــة التى يجوز اثباتها ويجوز تفنيدها كما تتحدث عن النظرة الذرية لدالتون أو نظرية داروين مثلا .

أما الصورة الخيالية فهى الحق المستحيل ولكنه الحق الذى يصل بنا الى المعرفة اذ انه يعتبر مرشـــدا للعمل ، ورائدا للتقدم الذى لا غنى عنه . ولقد نهض

تشريع القـانون الرومانى على أفكار اعتبرها الرومان أنفسهم صورا خيالية للذهن • وكثير من أفكارنا تمر بهذه المراحـل الثلاث من الجمود الفـكرى فالفرض النظرى فالصورة الخيالية ، وأحيانا بطريقة عكسية •

ان الصورة الخيالية هى الشكل الذى يبدأ فيه التفكير ، كمـا أنها الشـكل الذى ينتهى اليه • فعند العالم ، هناك فرق بين الشكلين ، وهو أن الصـورة الأولى محض تصـور ، غير محكمـة ، وتدور بغـير ضابط ، وتتضمن الكثير من الأخطاء • أما الصـورة الثانية فقد مرت على مرحلة الفرض الذى تم اخضاعه للمنهج العلمى ، وضبطته شروط التجربة العلميـة ، لتصبح قاعـدة أو قانونا علميـا • ان القوانين التى نستخلصها فى علم الفيزياء مثـلا ما هى الا صـورة ذهنية ، دخلت من خلال الفروض النظرية ، ثم التجربة العلمية لتصبح قوانين أساسية ، تتضمن وضعا لظواهر طبيعيـة استطعنا أن نفسرها وأن ينجح تفسيرنا لها ، واستطعنا أن نتعامل بها فى تطبيقها وبهـذا تؤدى الى تقدم علمى •

وعند الفيلسوف ، يعمل التخيل على امتداد أفق التفكير – فى مجالات القيم والماهيات والغايات النهائية – ليصل الفيلسوف الى استخلاص بناء نظام معين ، ان الخيال عنده يعمل على ربط قوانين الطبيعة والكون ، وكل ما هو خاص وجزئى ليستخلص منه نظاما عاما .

وعند الأديب ، يعمل الخيال وترتقى الصور الخيالية فى مجال وجدانى . ان القصة أو الرواية أو المسرحية لها منهجها الخاص ، والصور الخيالية للأديب لابد أن تمر خلال هذا المنهج لتنتهى الى الصورة الابداعية . ففى مجال الوجدان يسمو الخيال المنتظم الى مرتبة الحب والشعر ، وفى مجال الادراك يرتقى الى أنظمة الفلسفة ، وفى مجال المعرفة العلمية يرقى الى الوصول الى النظريات العلمية التى يمكن تطبيقها .

بعد هذا الاقتباس من هافلوك اليس – والذى يدور حول نظرية هانز فايهنجر فى الابداع الفكرى –

يؤكد اميل توفيق أن نجاح العالم أو الأديب أو الفيلسوف يعتمد على عقل نشط الخيال ، والاخلاص لموضوع اهتمامه اخلاصا يرقى به الى مستوى التكريس • ولسنا ندهش أن نرى عالما ، ممن يتسمون بصفة الخيال ، يقتحم عالم الأدب ، أو الثقافة الأدبية والاجتماعية ويكون مبدعا فى انتاجه • ويستشهد اميل توفيق على هذا بعالم الذرة المعاصر نيلز بور الذى ترتبط نظريته فى فيزياء الذرة بالبيولوجيا والأنثروبولوجيا ، وجيمس جينز الذى يربط الفيزياء بالفلسفة ، وآرثر آرنجتون الذى يربط الفلك بالميتافيزيقا ، وبرتراند راسل عالم الرياضة الذى اقتحم الفلسفة والأدب من خلال منطقه العلمى الصارم وتطبيقه للمنهج العلمى ، و هـ• ج• ويلز العلامة الذى اشتهر بقصصه العلمى ، وجول فيرن وأولدس هكسلى وغيرهم •

كما يستشهد اميل توفيق بنماذج من مصر ومن علمائها الذين أنتجوا ما يشرف عالم الأدب ، من أمثال الدكتور أحمد زكى عالم الكيمياء والأديب والكاتب ، والدكتور حسين فوزى عالم الأوقيانوغرافيا وأديب

الرحلات والبحاثة التاريخى وأستاذ الموسيقى الغربية ، والشاعر الدكتور أحمد زكى أبو شادى الذى كان عالما فى البكترولوجيا وفى تربية النحل .

ويضيف ثروت أباظة الى هذه القائمة قائمة أخرى فى مقال له بجريدة الأهرام عدد ٢٨ ديسمبر ١٩٧٩ . فيذكر الدكتور التنير الذى يعتبر عالما فى طب الأسنان، والذى يكتب الأدب بأسلوب رفيع ولفظة عربية نقية ونظرة أدبية وفكرية واعية ، والدكتور العلامة نجيب محفوظ الذى كتب مذكراته فكشفت عن أديب صادق الحس دقيق العبارة رشيق القلم ، والدكتور المهندس ابراهيم الدمرداش ، والعالم الدكتور عبد الحليم منتصر ، فلهما من الآثار الأدبية ما يجعل من لا يعرف حقيقتهما يظنهما متخصصين فى الأدب لا فى العلم ، كما أنهما عضوان فى المجمع اللغوى .

ونضيف نحن بدورنا اسم العالم والأديب الناقد الدكتور ايهاب حسن . فقد يكون القارىء العربى ملما بفكرة سريعة عن الأدب العالمى الحديث ، ومع ذلك فمن الجائز جدا أن يكون اسم ايهاب حسن لم يصل بعد

الى أسماعه برغم المكانة العالمية التى يتمتع بها هـذا النـاقد المصرى الفـذ • وعلى الرغم من أن المجـال العـلمى البحت كان التخصص الذى بدأ به حيـاته العلميـة ، فانه تخصص فيما بعد فى الأدب الأمريكى المعاصر وأصبح من أكبر نقاده فى الصحف والمجـلات ، ومن أعظم أساتذته فى الجامعات الأمريكية • ولا يكاد يخلو كتـاب أو بحث يتنـاول الروايـة الأمريكيـة المعاصرة ــ على وجه الخصوص ــ من اشارة الى آراء هذا الناقد المصرى الكبير الذى طبقت شهرته الآفاق فى حين لم نسمع بعد عن اسمه فى العالم العربى •

١٦

أدباء علماء ـ علماء أدباء

ويجب أيضا أن نذكر فى هـذا المجـال الطبيب الشاعر الدكتور ابراهيم ناجى الذى لم تمنعه ممارسة الطب من أن يكون من رواد الشعر الرومانسى المعاصر، وذلك على عكس ما يتصور معظم الناس من أن الأدب الرومانسى أبعد ما يكون عن الاهتمامات العمليـة فى حياتنا . وهذا واضح فى أدب يوسف السباعى الذى يعد أيضا من أعمدة الرواية الرومانسية فى الأدب العربى الحديث . فلم يمنعه اتجاهه الرومانسى الواضح من

الاستعانة بالقوانين العلمية فى اقامة البنـاء الدرامى لرواياته لدرجـة أننى عندما كتبت عنه كتـابى « فن الرواية عند يوسف السباعى » وجدت المـادة الكافية فى أعماله لكى أكتب فصلا كاملا عن المنهج العلمى عنده. فمثلا فى رواية « انى راحلة » يقيم السـباعى بنـاء الرواية كله على قانون الحركة الثالث لنيوتن عندما تقول بطلته : « ان ذلك الكبت فى مشاعرى وأنا طفلة والمبالغة فى الحزم والشدة فى تربيتى ، قد أنتج نتيجـة عكسـية وسبب لى الانطـلاق من أول ثغرة بدت فى حياتى .. وأنه ككل فعل لابد له من رد مسـاو له ، ومضاد له فى الاتجاه » . وفى رواية « بين الاطلال » تتبلور نسبية آينشتاين عندما يحدثنا البطل عن بعد الزمن الذى يسير فى اتجاه واحد ولا يمكن أن يتراجع أبدا ، وذلك هو السـبب الأول فى وجـود العنصر المـأسوى فى الحياة الانسانية . فالانسان لا يستطيع اصلاح الخطـأ باعادة المـاضى ، فمتى حدث الخطـأ أصبح ملكا للماضى الذى لن يعود ، لذلك يقول البطل لحبيبتـه : « ما خذلنا كالزمن ، وما أضحـكنا على أنفسنا مثله » .

ويضيق بنا المقام هنا لكى نستشهد بأمثلة أخرى تدل على استخدام السباعى للقوانين العلمية فى رواياته وقصصه، ولكن يكفى أن نذكر أنه من السهل العثور على أصداء لنظريات الجاذبية والنسبية والحركة والقوة والمقاومة والطاقة والكبت والانفجار والعرض والطلب والتطور ودفعة الحياة والكم والكيف ... الخ ، هذا على الرغم من تطرف السباعى فى أحيان كثيرة فى اتجاهاته الرومانسية المغرقة فى العاطفية ، مما يدل على أن قوانين العلم قادرة على التغلغل فى كل الأعمال الأدبية بمختلف أنواعها .

ولعل من الكتب الجديرة بالذكر فى هذا المجال كتاب « الفضاء فى خيال الأدباء » للدكتور محمد فتحى عوض الله الذى ألفه لكى يثبت أن الصراع بين العلم والأدب هو مجرد وهم ، لذلك فهو ينشد بكتابه توازن الروحانية والعقلانية فى هذا العصر ، وانتشار الروح العلمية فى آدابنا العربية بحيث تقلل من انصراف شبابنا عن العلم فى عصر يوصف بأنه عصر العلم . أما لماذا اختار الفضاء عنوانا لكتابه ؟ فذلك لأن

الفضاء كان آخر مواليد العلم ، ولذلك كنى العصر به ، وأضحى رمزا لقمة التقدم العلمى . واذا كان الهدف من التقدم العلمى توفير أكبر قدر من الرخاء ، فهذا الرخاء ليس ماديا بحتا ، بل له جانبه الروحى والفكرى أيضا . وهو الجانب الذى يقدمه الأدب . ولابد من توازن بين مادية العلم وروحانية الأدب حتى لا يستقطب الانسان الى أحد قطبين ، فيكون حيوانا أو متصوفا . ويستطرد الدكتور فتحى عوض الله فى مناقشته للقضية فيقول :

« ولئن كان العصر عصر علم حقيقة ، الا أن المحقق كذلك أن التقدم العلمى حتى فى أرقى الأمم ، لم يجن على الأدب . ومازالت التكنولوجيا ، ولسوف تظل ، لا تؤثر على الفن ، لأنها بداهة توفر فراغا كبيرا للانسان ، لابد للأدب أن يملأه بزاد روحى .

وكيف يحق لنا ، أن نقيم بين العلم والأدب صراعا ، فندعى لهذا أثرا فى ذاك ، أو لذاك غلبة على هذا ، مع أن الأدب فى حقيقة ، كان وراء كثير من

الاكتشافات العلمية .. فهذه فى غايتها ، أحلام نفوس فنانة وشاعرة . فاختراع الطائرة ، كان حلم انسان فنان ، يريد الانطلاق من قيود الأرض ، ليطير كالعصفور .. وحقق العلم ما حلم به الأدب . كذلك ، تحطيم الذرة والبحث فى أحشائها ، انما هو حلم انسان فنان ، يريد اكتشاف سر الكون .. ومطاردة الفيروس والميكروب ، انما هو هدف انسان فنان ، يريد أن يرسم البسمة على وجه انسان مثله .. وهكذا » .

ويعتقد فتحى عوض الله أن الرواية العلمية الجيدة شكلا وموضوعا قد تكون هى الهدف وهى الوسيلة عندما تمكن الانسان العادى والمثقف غير العلمى من أن يتابع فى يسر وشوق مجريات الأمور فى عصره العلمى من خلال الصيغة الأدبية المشوقة . فهى الهدف من حيث الصيغة الأدبية المطلوبة لمواءمة العصر الحالى، وهى الوسيلة لرأب الصدع القائم ما بين العلم والأدب . فالعلم اليوم يمنح الكاتب والفنان والحرفى والصانع والعامل والزارع وغيرهم ، يمنحهم جميعا الأداة التى بها يعملون وينتجون ، وبدون تلك الأداة ،

لا تمضى الحياة • فكيف يجرى الأدب وتشطح فرسان خياله وشياطين الهاماته فى وديان تبعد به عن الالتقاء بالعلم ، ويقرأ القارئون قصصا وأدبا وفنا ، ويرى المشاهدون أفلاما ومسرحيات ، ويستمتعون بلوحات وتماثيل دون أن يعطوا الجرعة التى تردهم الى فضل الأداة وماهية الأداة وسر تلك الأداة التى يقدمها العلم وتقدمها التكنولوجيا • ويتساءل الدكتور فتحى عوض الله فيقول :

« ألستم أنتم معنا فى أن حاجة البشرية الى شعراء هى صنو حاجتها الى علماء ؟ ! وألستم معنا فى أن آلام البشرية قد يكون مصدرها العلم ، كما هو أيضا قد يكون بلسمها الشافى ؟ ! وألستم معنا فى أن العلم ، هو من صميم أعمال البشر ، بل هو أبرك فيض للفكر الانسانى وخالق لأعمال البشر ؟ واذا كان العلم من أعمال البشر •• وهو مصدر أو مزيل آلام البشر ، وهو نبع فياض لرفاهية البشر •• فكيف يتسنى للشعر أن يتحداه ؟ واذا كان الشعر قد تغنى ببطولات الرجال والأمم ، فما عليه لو تغنى ببطولات

يخلقها العلم اليوم لكل الأمم ؟ لا يجب أن يتصارع العلم والشعر .. فالشعر غذاء للروح ، نعم ، ولكنه غذاء لها على مقعد وثير يسره العلم ، وفى جو مكيف هيأه العلم ، وفى رفاهية خلقها العلم . وقارىء هذا حاله ، وذاك وضعه ، يسره جدا أن يقرأ الشعر متعاطفا مع العلم لا عنيدا معه . يسره جدا أن يخاطب الشعر روحه ، ولكن ليس بعيدا عن أحداث عصره . ولا يمكن أن يكون الشعر غير بعيد عن أحداث عصره الا اذا تزاوج هو والعلم معا ، فاختلطا وامتزجا ، لعل وليدا جديدا أن يخرج الى هذه الحياة فيرأب الصدع قبل أن يستفحل الصدع ، بين علم فى واد ، وشعر أو أى فن فى واد آخر .. ولو قد افترقنا ، فماذا يومها نحن البشر فاعلون ؟ ، وأى السبل سالكون ؟ .. أما من سبيل سوى بينهما ؟ أما من وفاق ينتظمهما ؟ ذاك ما نطالب به باسم ثقافة عصرية تزين الحياة الانسانية ولا تقبحها ، تزيدها رفاهة وثقة ، لا ضجرا وشكا .. نريد أن يلتئم معا الرافدان : العلم والفن ــ بعيدا عن الأكاديميات فى هذا وذاك ــ فيعطيان شرابا وقد

امتزجت فيه الفيتامينات بالمشهيات .. فتنجلى أبصارنا ، وننظر الى عصر بنفس منظاره ، فلا تشتبه علينا الأمور ولا تختلط الأوضاع ، فتنجزع نفوسنا وتتهرأ أرواحنا ويملأ الشك بسناجه نفوسنا » .

ويؤكد الدكتور عوض الله أن الأدب اذا لم يلحق — فى العالم العربى — بركب العلم الحديث فان قطار الحضارة سيفوته . فالعلم خادم للأدب اذا تعلق به وتهافت عليه وكان له فى توجيهه ولو قدر ضئيل : وهو ساحقه لو أنه تقوقع فى قلة من الأيدى المتحجرة البعيدة عن تيار العصر . ولجام العلم هو الأخلاق مدفوعة من نبع الآداب والفنون بكل أشكالها ومضامينها . والطريق الى ذلك طريق واحد لا طريقان .. نقلل به الهوة ونضيق به الفجوة . ذلك هو طريق التزاوج والامتزاج ، لاخراج ثقافة علمية عريضة القاعدة واسعة الانتشار . ولم يكن هذا التزاوج بشىء دخيل على الحضارة العربية ، بل كان المصدر الذى نبعت منه وهى فى أوج ازدهارها . ففى ألفية ابن سيناء عن الطب نجد تزاوجا مثاليا بين علم الطب وفن الشعر . يقول ابن سيناء :

« قــد خلق بفضــله الانسانا
فضــله بالنطــق واللســانا
يوحى اليه العلم بالاحساس
كمــا بــدا الخفى بالقيــاس
والشــعراء امــراء الألسن
كمــا الأطبـــاء ملوك البدن
هذا يسن النفس بالفصاحة
وذا يطب الجســـم بالنصاحة
وهذه ارجوزة قد اكتمــل
فيها جميع الطب علما وعمل »

وفى مقدمة كتاب الدكتور محمد فتحى عوض الله كتب الدكتور أحمد هيكل كلمة أبدى فيها حماســه الشديد ، وحماس كل المثقفين الناضجين لكل محاولة مخلصــة فيما يمكن أن يســمى « تأديب العــلم » أو « تعــليم الأدب » ، حتى تضــيق المسافــة بين العملاقين ـ العلم والأدب ـ اللذين يبدوان متنافرين ، وحتى يصبحا ـــ آخر الأمر ـــ جنــاحى الانسانيــة اللذين يحملانها الى المرتقى المــأمول أو الى الجنــة

الموعودة . فبعلمية الأدب ، وأدبية العلم يتحقق آنبل تصالح لخير الانســان ، فلا تستبد العقلانيــة التى قد تغامر بالبشرية الى مهاوى المــادية المهلكة ، ولا تطغى الوجدانية التى قد تجنح بالانسانية الى متاهات الخيالية المضللة . ان حضــارة العصر تســعى الى مزج العلم بالأدب فى أسلوب « علمى متأدب » أو فى شكل « أدبى متعلم » حيث يجمع بين مادة العلم واطار الأدب أو بين دقة التفكير ورونق التعبير ، وذلك من أجل تخليص العلم من الجفاف وتوجيهه ــ كالفن ــ الى ســعادة الانســانية ، ومن أجــل انقــاذ الأدب من الخــواء وتوظيفه ــ كالعلم ــ لرفاهية البشرية .

وأخيرا يحسم فيلسوف الجمــال الدكتور زكريا ابراهيم القضــية كلها فى كتابه « الفنان والانســان » عندما يوضح أن أية ثقافة تفصل بين العلم والأدب هى ثقافة مصابة بانفصام الشخصية . فالعقل الانســانى لا يمكن تقسيمه الى خانات نخصص منها خانتين لكل من العلم والأدب .. فلا يمكن أن يقوم أدب بدون علم ،أو فن بدون فكر ، الا اذا أمكن أن يقوم شكل

بدون مضمون ، أو صورة بدون موضوع . فالفنان انسان يفكر ، ويواجه مشكلات ، ويحاول الاهتداء الى حل أو حلول لما يواجه من مشكلات . يقول الدكتور زكريا ابراهيم .

« مهما يكن من أمر اختلاف تفكير الفنان عن تفكير العالم ، فان كلا منهما لا يملك سوى اعمال عقله فى مواجهة المواقف التى يجد نفسه بازائها ، محاولا الوصول الى المعادلة الصحيحة التى يضمن عن طريقها تحقيق التوافق بين « ما فى ذهنه » من جهة و « ما فى العالم الخارجى » من جهة آخرى . ولعل هذا هو السبب فى أن الكثير من الفنانين لم يكونوا يرون فى انتاجهم الفنى مجرد ثمرة لنشاط تلقائى ، بل كانوا يرون فيه ثمرة لجهد عقلى شاق ، وقد لا نجانب الصواب اذا قلنا ان الغالبية العظمى من الفنانين كانت تتمتع بذكاء عقلى نادر ، وقدرات ذهنية فائقة ، حتى لقد زعم بعض علماء النفس أن النشاط الفنى ذاته هو صورة من صور الذكاء . ولا نرانا فى حاجة الى تذكير القارىء بما قاله الفنان الشهير ليوناردو دافنشى

عن « التصــوير » من أنه « شيء ذهنى » . فانه لمن الواضح أن النشاط الفني هو صــورة من صــور « النشاط العقلي » بالمعنى العام لهذه الكلمة .

وقد آن الأوان للعقل العربى أن يستوعب أبعــاد هذه المقولة الحيوية والخطيرة . ذلك أن وحدة المعرفة الانسانية هى روح العصر وجوهر حضارته . وأى تحليل للأعمــال الأدبية لا ينهض على أســاس علمى لا يمكن أن يدخل من باب النقد الموضوعى ، لأن النقد أصبح علما تحليليا بدوره . أما اذا سار الأدب فى درب بعيد عن هذه الروح العلميــة ، فانه بذلك يقع أسيرا للبلاغة التقليدية الجوفاء ، وضحية للقوالب الانشائية المباشرة التى لم تعد تقنع العقل الانســانى المتحضر . ولم يخل الأدب العربى المعاصر من محاولات التجديد والتأصيل فى آن واحد ، بحــكم ريادة الفكر العربى القديم فى الربط العضــوى والحضــارى بين العلوم والآداب . ففى العصر الحــديث واصلت محــاولات التجديد دعوتهــا بحيث لم تطــالب فقط بالتخلى عن السجع اللفظى ، بل عن السجع الذهنى أيضــا كمــا

أسماه يحيى حقى الذى دعا الى استخدام الأسلوب العلمى فى الأدب : أى أن يكون للمعنى الواحد لفظ واحد ، فلا استطراد ولا حشو ، ودعا الى التخلى عن القوالب اللغوية الجامدة فى أدبنا العربى . فعلى الأديب أن يستخدم عقله العلمى فى ابتكار أسلوبه كما يبتكر موضوعه ، ودعا الى الاقلال من حروف العطف لأن سير الذهن فى الأدب ليس خطوا متتابعا رتيبا ، بل هو توثب يفرض على ذهن القارىء وعقله توثبا مثله ، يخرجه من سكون الى حركة وهكذا . انه التوثب العقلى الذى يشترك فيه الأديب والعالم .

بهذا يمكننا القول بأن قضية العلاقة العضوية بين العلم والأدب لم تعد بحاجة الى جدل ما بين مؤيد ومعارض ، بل انتقلت الى مرحلة تطبيقية تحتم على كل المفكرين والمثقفين الناضجين تدعيم أبعادها وترسيخها فى كل مجالات المعرفة الانسانية التى أثبتت على مر عصور الحضارة البشرية أنها وحدة لا تتجزأ .

الفهـــرس

الصفحة

رقم الايداع ٣٩٥٢/١٩٩٢

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 3035 - 4

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

هذا الكتاب دعوة لأدباء العالم العربى وفنانيه ومفكريه لرأب الصدع بين الأدب والعلم ، بحيث نعالج الانفصال الذى طرأ بينهما نتيجة للظروف والضغوط والمعوقات الحضارية والتاريخية التى أجبرتنا على عدم اللحاق بركب الحضارة الإنسانية المعاصرة التى تؤمن بأن العلم والأدب وجهان لعملة واحدة هى المعرفة الإنسانية التى لا تتجزأ بطبيعتها . خاصة وأن الحضارة العربية عندما كانت فى أوج إزدهارها لم تفرق بين فروع المعرفة الإنسانية ، إيمانا منها بأن كل روافد الحضارة تنبع من نفس المنبع وتصب فى نفس المصب

الكتاب القادم

طرق مصر المقدسة

حسن الرزاز

٩٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب